الإهداء

لبيت الشباب بعودة

مصالح البلاد

892.73
H128A
[redacted]
MAR 24 '56
APR 1 '56
FEB 1 '65
13 OCT 65
1500 66

892.78
Ha 2818 Qa
c. 1

ليت الشباب يعود

ذاتيتان في شخص واحد

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

تقدمة

هذا الرجل المزدوج

هذا رجلٌ متمتع بعمرين في زمنين متعاقبين . وعاش بشخصيتين متناوبتين في حياتين متبادلتين . تقلب في أولاهما بين الحظوظ والخيبات الى أن قارب الكهولة . فتمنى أن يجدد الحياة لكي يصلح الغلطات فاستجيب تمنّيه . وعاد يستأنف الحياة الثانية من جديد من أول الصبى . فما كانت الحياة الثانية بأصح من الأولى ، ولا أقل منها أغلاطاً . لماذا ؟

اختبر القضاء والقدر، والحرية والاختيار ، وحار بين الحظ والسعي، وتردد بين الخير والشر، وتحيّر بين الثواب والعقاب، وتعلل بين الغنى والفقر، وشهد الحرب بين إلهه المال وإلهه الخير.

وبقي في الحياتين لا يدري هل هو مسيَّر أم مخيَّر، ضاع بين الجبرية والقدرية[1] . فناقش ونوقش فيهما فما استقرَّ يقينه على الراجحة منهما .

في هذا الكتاب دراسة فلسفية في هذه المواضيع التي لا يزال البشر يتجادلون فيها منذ بدء الخليقة الى اليوم .

نقولا الحداد

---

[1] الجبرية فرقة من الفرق الاسلامية قالوا لا قدرة للعبد أصلا، لا مؤثرة ولا كاسبة ، بل هي بمنزلة الجادات في ما يوجد منها . والقدرية هم جاحدو القدر والقدين يقولون أن كل عبد خالق لفعله، ولا يردون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى

ليت الشباب يعود

الفصل الاول

الوسيط

قال الراوي : —

في ذات يوم كانت لي مشكلة في دار البريد في القاهرة . وكان الموظف نعيم النعماني يعالج مشكلتي ، وقد توسمت فيه الإخلاص والعدالة في حل المشكلة ، فشكرت له أمانته وطيبة قلبه من كل عواطفي . ولما علم إني أشتغل بتجارة الواردات السورية طلب مني صفيحة من زيت الزيتون النقي . وفي اليوم التالي أرسلت اليه الصفيحة حسب العنوان الذي أعطانيه .

وما هي إلا بضعة أيام حتى فاجأني السيد نعيم في نيويارك حيث اعتدت ان أتنحى مساء من عناء العمل اليومي وعاتبني قائلاً : أهكذا ياعزيزي يوسف ترسل صفيحة الزيت ولا ترسل معها « فاتورة » بالثمن ؟

قلت : الحمد لله ان ذنبي يقف عند هذا الاهمال المقصود ، لأني قدمت الصفيحة هدية ، فأرجو ألاّ ترفض الهدية .

فكاد يستشيط وقال : بل أردها غداً . وفهمت أنه لن يقبلها هدية . فقلت إذن آخذ ثمنها بلا ربح ، وعسى أن أستطيع خدمتك بأمر آخر .

وما لبثنا أن صرنا صديقين . وفيما نحن نتحدث بأمور لا طائل تحتها ، كأننا نقتل الوقت تحت لواء الصداقة ، ورد على لسانه ذكر بهيج بك رحمي ، فقلت : أتعرفه ؟

قال : اشتغلت معه برهة طويلة في دار البريد في الاسكندرية وأعرف أسرته جيداً . فهل تعرفه ؟

قلت أعرف عقيلته السيدة وديعة إذ كانت تصطاف مع أهلها في بلدتنا في لبنان ، وهي سيدة فاضلة لطيفة .

قال : وبهيج بك رجل فاضل أيضاً وله منصب كبير في مصلحة البريد . إذاً تعرف أهل السيدة وديعة أيضاً . وتعرف الآنسة فريدة .

فاختلج فؤادي بين ضلوعي كأنه كان ينفضها عنه فضغطتها عليه وقلت غاصًّا : نعم أعرفها . ألم تزل عند أختها ؟ كيف حالها يا ترى ؟

قال : أنها لآية في الأدب واللطف والذوق، فازداد انتفاض قلبي وشعرت أن السيد نعيماً محدثي يسمع نبضات دمي في عروقي فقلت : والجمال أيضاً . أليست جميلة، أليست منزلتها في الجمال كمنزلتها في الأدب واللطف والذوق .

قال : متوسطة في الجمال . لا تعد آية فيه

قلت في نفسي : ليت لهذا الغبي — لا أقول ليت له عيني لكي يرى . بل ليت له فؤادي لكي يحس بخفقانه . ثم قلت له: إذا كانت آية في الأدب واللطف والذوق، فهي آية في الجمال أيضاً . ما هو الجمال؟ أليس هذه الخصال ؟

ففهم نعيم ما في قلبي من وجد وقال : بلى حقيقة، ولعلها جميلة، لو لم تكن عليلة

قلت مضطرباً . ألم تزل عليلة . هي عادت الى الاسكندرية لكي تكون تحت رعاية طبيبها . أفما استطاع طبيبها أن يشفيها ؟

فضحك النمامي وقال : ان مرضها روحاني يا أستاذ يوسف . لا يستطيع أعظم طبيب أن يشفيها حتى ولا طبيبها لأن داءها جاء عن يد طبيبها

فبغت وقلت : كيف ذلك ؟

قال ان ذلك الطبيب خطبها وهي في أحسن صحة عقلية وجسدية . وبقي يتردد على بيت بهيج بك صهرها شهوراً، وهم يطلبون إليه أن يقترن بها، وهو يسوّف لأعذار منسوجة نسج الديباج، ولكنها لا تستر جسماً، فكانوا يصبرون . وفي ليلة وضحاها انقطع الدكتور عن زيارتهم وافتقدوه فلم يجدوه . وبحثوا عنه فقيل لهم أنه باع عيادته ورحل الى نيويورك حيث له أخوة هناك موفقون وهو لم يكن موفقاً في الاسكندرية . مضى ومضت أشهر وهو لم يكتب لهم كلمة. فانقطع أمل الفتاة وسقمت لفشلها في الحياة .

— إذاً كانت تحبه حباً جماً إذ فقدته

— لا أظن أن سبب فشلها فقد هذا الخطيب بل فقد حبيب آخر، فقدته بسبب هذا الطبيب .

قلت : هذا غير معقول .

قال إلى هنا لم أعد أعرف مزيداً. وانما هناك رواية أخرى شبه سرية .

قلت مجفلاً : ماذا ؟

— يقال أنه تكلل عليها وفي اليوم التالي هجرها وسافر بلا وداع . ولكنني لا أظن أن هذه الحكاية صحيحة .

قلت : ألا تزال في الاسكندرية . أما عادت الى أهلها في بيروت ؟

قال : لا أظنها تعود . لأن أخاها فريداً جاء الى الإسكندرية وأسس محلاً للصياغة وتجارة المصوغات والساعات . وأظن أن أبويه سيتبعانه قريباً .

* * *

عدت في تلك الليلة الى منزلي أحمل على

منكبي أحمال ذكرياتي السابقة الثقيلة .

بعد أيام معدودة كنت حسب عادتي جالساً في نيوبار . أستعرض ذكرياتي الماضية فأرى حلوها مرًّا وجميلها قاتماً، وإذ فاجأني صديقي البريدي نعيم النعماني وفي محيَّاه أمارات بشر، فحيينا تحيات الأودَّاء الأوفياء وقال : هل تعلم أن عقيلة بهيج بك رحمي هنا في القاهرة الآن ؟

قلت : أجل علمت أمس اذ شرفتني بزيارة في محل تجارتي . ثم تغدينا معاً في مطعم الحاتي .

قال باسماً : عسى أن أخبارها كانت سارَّة لك .

قلت : لا بدَّ أنك أعرف بأخبارها مني وبينك وبين أسرتها صداقة قديمة حميمة .

قال : أجل لقد عرفت منها كل شيء يهمك ويسرُّك .

قلت : ما ذا عرفت ؟

قال : عرفتُ ما كتمتَه عني في اجتماعنا السابق اذ لم يكن من داعٍ للتنويه به .

قلت : ما ذا ؟ ما هو ؟

قال : عرفت ما كان بينك وبين أسرة السيد خليل منسى الصائغ أبي فريدة من صداقة، وما كان بينك وبين ابنته من حب وخطوبة

فانتفض قلبي حتى شعرت أنه ينضغط بين ضلوعي . فتجلدت وقلت : وبالطبع عرفتَ كيف فُسخت الخطوبة بسبب دخول شخص ثالث بيننا هو الطبيب الذي ذكرت لي حكايته في اجتماعنا السابق

قال : إن ما روي لي وَرَوَيته لك عن تدخُّل الطبيب لم يكن صحيحاً . نعم كان الطبيب يعد نفسه بزواج فريدة ولكنهم لم يمنُّوه بها . فلما ضاق ذرعاً رحل الى أميركا

فضحكت وقلت : بالطبع لا يحسن بهم أن يقولوا الآن إلاَّ هكذا .

قال : ثق يا عزيزي يوسف انه لم يعقد زواج الدكتور بتاتاً ، ولك أن تتحقق ذلك من سجل الزواج . فلك أن تعتبر أن ذلك الطبيب لم يدخل بينك وبين آل منسى وان خطوبتك لا تزال قائمة .

قلت : أرى يا عزيزي أنك موفَدٌ من قبل السيدة وديعة أخت فريدة لأجل وصل ما انقطع ، فلا تؤاخذني اذا قلت لك أنك لست أبرع منها بوصل المنقطع . لأنك لا تعرف كيف ابتدأت صلتي بفريدة وكيف انتهت . ولعلَّ وديعة نفسها وأبويها لا يعرفون أيضاً . ولو كنت تعرف فلعلك لا تكلف نفسك عناء السعي المشكور في هذا العمل المبرور

فقال : حقاً إني لا أعرف ولا أدري إن كان ما روي لي كان الواقع بعينه .

قلت : إذن فلا بأس أن تسمع الحكاية بحذافيرها لكي تعلم ان كنت تصلح قاضياً في هذه المسألة أو وسيطاً كريماً . ليس في الحكاية ما يجب أن يكون سرًّا مكتوماً . عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . فاعرف .

الفصل الثاني

براعة الحب

وشرعت أروي له حكايتي : —

في السادسة عشرة من العمر تبتدىء براعة الحب تفتق الكم لكي تتفتح الزهرة، ولذلك كان قلبي حائماً كالنحلة على زهرات، الفتيات ، لا يلبث أن يستقر على زهرة حتى ينفر عنها الى أخرى طامعاً بحلاوة أشد . وكان في جيرتنا فتاة تدعى سلمى بنت حليم الزعفراني . وكانت أكثر اعتراضاً في سبيل حياتي من سائر فتيات الحي، فكنت أظن اني أحبها . ولكني كنت دائماً أتشوّف الى غيرها . أما هي فكانت على الرغم من حشمتها وتصونها لا تستطيع أن تكتم حبها لي

منذ تلك السنة جعل أبي يصطحبني معه الى مصر لكي يدرّبني على تجارته . وهي تجارة الحاصلات اللبنانية والسورية من زيت وزيتون وقمر الدين الخ، ويعوّدني السفر ومعالجة الشراء والبيع ويعرّفني « بالزبائن » . ولما عدنا من أول رحلة عدت مفتوناً بجمال من شاهدت في مصر من النسوة من غير تخصيص . فلم تعد فتاة من فتيات البلدة تتصباني . كنت متقداً حبًّا ولكنه حبٌّ بلا حبيب . أين الحبيب . لا أدري . أية من رأيت من الفتيات كنت أهواها . ولكن إذا غابت عن بصري ذهب من قلبي هواها، وأقام فيه هوى آخر، حتى سلمى الزعفراني التي كانت أحبهنّ الى قلبي لا يمكث هواها يوماً واحداً في نفسي بل هو يتردد عليّ كتردد الربيع بين الفصول الأربعة .

كنت أحس أني عصفور طائرٌ من فنن الى فنن، متنقل من دوحة الى دوحة، كأنّ الأرض لا تسعني والجو ضاق بي والهواء يقذفني الى السماء . كنت أراني شيئاً ممتازاً في الوجود، ولكن ما هو هذا الشيء . لا أدري . كنت أظن أن العالم مخلوق لي ، لا أنا مخلوق له . لله من غرور الصبا الذي كان يتبختر في دماغي ويتطاير منه عجباً وخيلاءً وزهواً .

في الصيف الثامن عشر من عمري كنت أشاهد كل يوم بعد يوم فوجاً من المصطافين في بلدتنا التي تعد من أجمل المصايف . وفي ذات يوم شاهدت أسرة قادمة الى المتنزه وهي أم وابن وابنة . فما وقع بصري على الفتاة حتى شعرت لأول مرة في حياتي بهزّة في بدني كله لم أعرفها من قبل . لا أكون قائلاً مجازاً اذا قلت انها هزّة كهربائية رجت بدني كله ووجف بها فؤادي في صدري

شعور لم يطرأ عليّ من قبل . فلم أفهمه، أول مرة في حياتي هفا قلبي لامرأة على هذا النحو . وقعت عيناي على عينيها فلم أستطع أن استرد بصري إلاّ حين حدقت بي فأغضيته، كأن في نظرتها قوة أطبقت أجفاني فأعرضت ومضيت متجاوزاً طريقها . ولكني ما لبثت أن تقهقرت كأن قوة تردني لكي أرى ما في ذلك الهيكل الانساني من حبائل وبطء به، وجعلت تجذبني اليه، بقي نظري يشيع ذلك الهيكل حتى استقرّ الثلاثة في موضع حسن في المتنزه . فما رفعت قدماً الاّ كانت خطوة الى ذلك المقام على الرغم من تهيبي ذلك الأقنوم . ولما اقتربت الى المكان خفت أن تفر الظبية من فحتي في الارتداد لمواجهتها، فحاولت أن أرجع، ولكن قدميّ أصرّتا على الدنوّ الى مقربة من مجلسها . فجرأت نفسي وجلست لدى ذلك الثالوث المقدس .

أجل أحسست أن ذلك الأقنوم موطن الطهارة والقداسة والنعمة . ويحي ! أبنظرة واحدة تهب كل عاطفة فيّ . أين كانت هذه العاطفة الغريبة كامنة ؟ لم أعهد من قبل أن في الوجود مايقلقل جسماني، ويثير وجداني، ويزلزل ما بين ضلوعي .

رأيت قبل ذلك الحين فتيات وسيدات كثيرات وعطفت وملت وهويت . ولكن كهذا الهوى لم أحس .

ألعلّ هذا ما يسمونه حبّاً أو عشقاً أو غراماً أو تدلهاً أو ولهاً أو شغفاً ؟ ان هذا الوله يوهن قوّة الارادة، يضيع الاستقلال الشخصي، يقتل الحرية . لذلك شعرت أني أصبحت ولا اختيار لي . رأيت أني غدوت مقيداً بذلك المكان ومرتبطاً بذلك الهيكل الروحاني .

بذلت جهدي ألاّ أخالسها البصر مخافة نفورها . ولكن ما من مرة نظرت اليّ شزراً الاّ اصطادت مني نظرة على الرغم من تعملي الاعراض تحايداً لنفارها

ما عدنا من ذلك المتنزه إلاّ وقد تحدّثت العيون . أعلى تفاهم أم على تجاهل ؟ لا أدري أعلى تلاؤم أم على تباين ! الله أعلم

تتبعت ذلك الثالوث الى أن توارى في داره حين كانت الدار نفسها تتوارى في حلك الليل .

رجعت من ذلك المعبد الذي اكتشفته مسائذ، وكنت لا أراه قبل ذلك المساء إلاّ مباءة للفئران والجرذان اذ كان خالياً من السكان

وعلمت ليلتئذ من أمي أن ذلك المنزل ملك السيد خليل منسى الصائغ الذي يشتغل بفن الصياغة في بيروت ويتاجر بالمصوغات وان هذه الأسرة أسرته تصطاف كل صيف في ذلك البيت . وان اسم الفتاة فريدة وإسم أخيها فريد . أين كانت فريدة هذه ؟ لم أرها في صيف سابقاً . لعلّ برعمتها لم تتفتق من زهرتها قبل ذلك الصيف

من تلك الليلة دبَّ الهوى الأفلاطوني في فؤادي . منذ ذلك المساء اعتبرت أني دخلت في دور جديد من الحياة الروحية ، أو دخلت في دور جديد من العمر . منذ ذاك استيقظت في غريزة المطامع ، وتنبهت نعرات الآمال منذ ذاك . ادركت أني إنسان وان الإنسان مخلوق للجهاد ، وأن النشاط الذي يشعر به إنما هو أداة للجهاد

في تلك الليلة تعاظمت الآمال وتجسمت الأماني . ولكن الطريق إليها لا يزال مجهولاً . بيد إني اكتشفت أن فريدة هي الباب للدخول الى رحبة الأماني .

في تلك الليلة كان طيفها ماثلاً أمام مخيلتي واضحاً في حلك الليل ، حتى بعد أن أغفيت كان لا يزال يخطر في مخيلتي .

أتطلب ياعزيزي مني وصفاً لذلك الأقنوم الملائكي ؟ لازوم لذلك الوصف... ليس في الكون جمال كجمال ذلك الأقنوم في نظري ، فإن كنت في بدء الخليقة أو في نهايتها فلا يرتسم في مخيلتي غير ذلك الجمال . هو الأول والآخر . وإن عبرت الكون من طرفه الى طرفه الآخر فلا يروق لعيني غير ذلك الجمال .

إذا شئت أن ترسم جمال فريدة فانسخه عن مخيلتي . أنظر في حدقة عيني تَرَه

ما هو الجمال ؟

هو خيال ينطبع في جرثومة الحياة فيجعلها روحاً .

هو شعاع ينعكس عن جوهر الروح فيجعلها حبًّا .

هو جوهر يقترن بالحب فيلد سحراً .

وما هو الحب ؟

هو نبضة تتغلغل في الجماد فتجعله كهرباء ، وفي النبات فتجعله إحساساً ، وفي الإنسان فتجعله شاعراً حساساً ، وفي النفس فتجعلها خالدة . والخلود المطلق للألوهية . والله محبة . والمحبة تربط أجزاء الكون وتحركها جميعاً .

الحب يخلق الجمال ليتغذى به .

الجمال وُجد . والحب وُجد . ولكن هل وسم هذا الحب قلب فريدة . قلت لنفسي حينئذٍ ان جواب هذا السؤال هو شغلك الشاغل يا يوسف منذ الغد

لله من الحب . يسهل الصعاب ويذلل العقبات . فما انقضى اليوم التالي حتى صرت وفريدٌ أخوها معرفتين بعد أن كنا نكرتين الواحد للآخر . وفي اليوم الثالث صرنا صديقين بعد أن كنا غريبين . وفي اليوم الرابع صرنا حميمين ونحن من سنٍ واحدة تقريباً . وفريدة جاءت على رأس فريد بلغة المواليد . وصرنا نجتمع أكثر الأمساء في المتنزه . وصارت لي جرأة على الحديث مع فريدة تارة ومع أمها أخرى . وصارت بيننا مودَّة ظاهرة مبطنة بشغف خفي . وحين ينعقد اللسان تتخاطب العينان وتتفاهم الروحان .

***

وكان يتردّد على الأسرة في المتنزه شابٌّ كان في السنة الأخيرة في كلية الطب الأميركية في بيروت . وهو كثير الدعوى ثقيل المنجهية، مغرور بنفسه وجماله وخفة روحه ، وروحه أثقل من رضوى . ولم يكن يحلو له الكلام إلا باللغة الانكليزية التي كنت أجهلها أو لا أعرف منها إلا نزر الألفاظ . ومتى كان هذا الدعي موجوداً معنا يحتكر الحديث مع فريدة بهذه اللغة الأجنبية . فكان كأنه الذئب ينهش في أحشائي، أو المفرقعات ترجّ أعصابي ، أو قصف الرعود يقرع دماغي .

من ذا يقول أن الحسد رذيلة ؟ ومن لا يقول أن الغيرة فضيلة ؟ ومن يقول أن البغض إثم والحقد خطيئة ؟ إذا كنت لا أعرف سعادة في الحياة إلا بمجالسة فريدة ومغازلتها أفلا أعذر إذا مقتُّ ذلك الطفيلي الذي يشاغلها عني ، وحقدت عليه ؟ أفلا أبغضه وأتمنى فناءه ، إذا كانت الدنيا تنازع بقاء ؟ — غفرانك اللهمّ

لما سمعت فريدة تكلم ذلك الثقيل بالانكليزية هبت في نفسي غريزة الغيرة . اشتهيت أن أعرف هذه اللغة لكي أفهم ما ذا يقولان ، ولكي أكلم فريدة بها . آليت على نفسي أن أتعلمها ، واتفقت مع معلم المدرسة عندنا أن يعلمنيها، وشرعت أقضي معظم النهار في الدرس والتحصيل ، وقد صحّ فيّ قول القائل « الحب رباني وعلمني الأدب » .

ما انقضى الصيف حتى تفاهمنا فريدة وأنا فيما بيننا ، تفاهماً سريّاً بأننا حبيبان . وتعاهدنا على أن نكون زوجين متى حان الزمن المناسب وهو غير بعيد .

وعادت فريدة الى مدرستها وفريد الى مدرسته وأنا الى مدرسة غرامي وهيامي وصبابتي في يقظتي ومنامي . ولما كنت أعرف أصول اللغة العربية معرفة كافية، وكنت أطالع كتب الأدب والشعر جعلت أنظم الأشعار تشبيباً بفريدة

اكتشفت أن الاسترزاق في هذا العصر لا يسهل إلاّ بقدر ما للانسان من العلم والمعرفة ، وإن استيسار الأمور في بلادنا لا يكون إلا بمعرفة بعض اللغات الأجنبية . كأن الله الذي ضرب علينا الذل والمسكنة بسبب كسلنا وبلادتنا قضى بأن لا نحصل رزقنا من بين أيدي مستعمرينا إلا إذا خاطبناهم بلغاتهم . فما أمكننا أن نضطرهم أن يتعلموا لغتنا، ولكنهم تمكنوا أن يضطرونا أن نتعلم لغاتهم . لذلك عزمت أن أستعد لدخول الكلية الأميركية في بيروت .

أرجو ألاّ تكون يا عزيزي نعيم قد مللت سماع قصتي هذه التي لا تهمك .

فقال : كلا البتة . اني مستلذ سماع هذه القصة التي أرى فيها دروساً اجتماعية وأخلاقية، فاستمع الى حديثك الى النهاية .

فاستطردت وقلت : في تلك السنة

حدث حادثان خطيران في حياتي : الأول أن أبي توفي بحمى خبيثة — رحمة الله عليه — كان حصني وملاذي ، فتركني في ارتباك وترك لي أمّاً وأختاً أصغر مني . لا بل وضعني أمانة في يد الله تعالى . لقد فعل لنا أكثر من الواجب عليه . فعلمني ما استطاع أن يعلمني ودرّبني بقدر ما أذن له اختباره . وترك لنا شيئاً من الأملاك العقارية لايكفينا ريعه إلاّ إذا قتّرنا في المعيشة . ولماذا نقتّر وقد أورثني صحة وعقلاً وعضلاً ؟

أما الحادث الثاني فهو أن حليم الزعفراني أبا سلمى كان في الولايات المتحدة الأميركية من جملة المهاجرين المرتزقين ، فكتب الى زوجته يستقدمها إليه مع ابنته سلمى ، لأنه كان ناجحاً في تجارة المطاط هناك ، فصعب الفراق على سلمى جدّاً وشكت لي ألمه وقالت : هل يسهل عليك يا يوسف أن نفترق ؟ أما أنا فأذوب حسرةً وأسًى . لماذا لا نعقد زواجنا وندع أمي تسافر وحدها الى أبي ؟

ولم تكن سلمى تعلم ما ذا كانت منزلة فريدة الصائغ من فؤادي . فحملت على قلبي حملة استعطاف بدموعها حتى كادت تصهره شفقةً وعطفاً . فحاولت أن أعتذر لها بأني لست في ظروف تسمح لي بالزواج بعد أن مات أبي وتركني غير مستعد الاستعداد الكافي للارتزاق . ولذلك آليت على نفسي أن أتعلم في الكلية (الجامعة) الأميركية في بيروت لكي أستعد لمسترزق أحسن .

واجتمعت بي مراراً لتقنعني بأسبابها وتستميلني بغرامها وتستعطفني بعبراتها . ولكن هناك صنماً آخر كنت أعبده . وقد استقرّ في هيكل قلبي وليس في مكنة سلمى ان تحطمه . ولما يئست سلمى من اقتناصي قالت بلغة اليائس « ألا تذهب معنا لكي تودعنا في بيروت الوداع الأخير »

قلت اذهب بلا شك . ولماذا تحسبينه الوداع الأخير ؟ من يدري ؟ فلعلنا نلتقي بعد حين .

والله يعلم إني كنت أمكر عليها لكي أخفّف من لوعتها بتجديد الأمل . ولكني كنت أجترم جريمة بهذا التأميل لا مغفرة لها

فأجهشت بالبكاء وقالت : « لا . لا . بل تشيعني في بيروت الى مقبرة الغرام » . وارتمت على ذراعي . فقبلتها قبلة حارّة . فانتعشت . وقالت : إذن أتظننا نلتقي بعد ؟

قلت مموّهاً كاذباً : قد أهاجر الى أميركا .

قالت : إذن سأستقبل الشمس والقمر كل يوم وكل ليلة على أمل أن تكون قادماً معهما .

* * *

وتوارت السفينة في الأفق .

تراءت لي سلمى صاعدة الى العلى لا مبارحة في البحر الخضم . وشعرت أني هبطت الى الدرك الأسفل لما انقطع حبل

الاتصال بيننا . شعرت به هبوطاً رضّ هيكلي وسحق قلبي وأطار لبي ، وأفلت ضميري وجعل يقرعني قرعاً أعمى بصيرتي .

أما ظلمت سلمى التي أخلصت الحب قدر ما يستطيع الانسان اخلاصاً . وهل أثق أن تخلص فريدة هذا الاخلاص ؟ « البعد جفاء » . بعد أسابيع تضاءل خيال سلمى في مخيلتي الى أن تلاشى — أجل تلاشى تجاه طيف فريدة .

* * *

انتهت سنتي المدرسية بنجاح تام .

ولما طلعت أسرة الصائغ الى مصيفها في بلدتنا كعادتها كانت معها السيدة وديعة أخت فريدة ، وعلمت أنها عقيلة صديقك بهيج بك رحمي الموظف في مصلحة البريد في الاسكندرية كما تعلم . وقد جاءت من القطر المصري في ذلك الحين لكي تصطاف مع أهلها .

عدنا نتردد الى المتنزه المعهود . وعاد ذلك الطبيب الدخيل الى فضوله وتدخله في أحاديثنا وأسمارنا ، كأنه لا يجد جماعة غير جماعتنا تصبر على تطفله . وقد زاده حصوله على شهادة الطب في تلك السنة عنجهية وإعجاباً بنفسه . وهو لا يصبر الى أن يمتدح الحضارعلمه بل هو يتمادى بالأطناب بمعارفه ووصف الأمراض التي عالجها ، وفعل فيها العجائب ، حين أنه لم يمض الشهر بعد انتهائه من الدراسة . وإنما هو يعزو لنفسه غرائب الأعمال الطبية والجراحية منذ كان طالباً ، حتى إنه كان يتدارك أغلاط أساتذته . كاد غروره هذا يستثير نزقي ، وأوشك فضوله ان يستفزني للقذع بسخفه ، وكان يوقد نيران غيظي ظني بأنه يضمر مطمعاً بيد فريدة . وكان يسعر حنقي ما يتراءى لي أحياناً من مجاملة الأسرة له . وخفت أن يستميل حبه فريدة اليه . فجعلت نفسي تحدثني بدراسة الطب . ولكن هناك بضع سنين قبل أن أظفر بشهادة الطب ، فهل تمهلني فريدة هذه المدة .

انقضى الصيف وعدت الى الكلية وما لبثت أن فجعني حادث لا تطيقه نفسي ولا يهدأ بعده روعي وهو أن وديعة أخذت أختها فريدة معها الى الاسكندرية لكي تقضي شتاءً عندها . فكنت في ذلك العام في كمد وفي حسرة

وكنت قد أخذت منها عهداً بأن تكاتبني عن يد أخيها . فكتبت لها في أول شهر مرتين ثم مرة في كل من الشهرين التاليين فردت على خطاب واحد ، وبعد ذلك لم تعد ترد بحجة اكتفائها بما تكتبه لأخيها وتذكرني فيه . وقبل أن ينتهي العام قاطعتني بتاتاً ولم تعد تذكرني في كتبها لأخيها على الرغم من عتابي الرقيق لها ، واستعطافي المتذلل في رسالة أخيرة ارسلتها اليها .

منذ ذلك الحين شعرت ان قلبها تغير عليّ . وكدت أذوب غمّاً . وصبرت على

هذا المضض الى أن عادت في أول الصيف والتقينا في الصيف حسب العادة . وعاتبتها عتاب العاشق الخائب . فأفصحت عما في نفسها وقالت بتطويل وتردد ما فحواه : ان هناك سبباً صحيحاً وجيهاً يضطرها أن تنقض العهد الذي بيننا . فألححت في طلب بيان هذا السبب الصحي . فقالت بعد تردد : مرضت في الاسكندرية مرضاً خطراً هو النزف ، وطال عهده ، ولم أشف الشفاء التام حتى اليوم . ولذلك قال الطبيب ان الزواج خطر لي ، فرأيت ان الذمة والشرف يوجبان عليّ أن لا أغشك ، لأن زواجنا يكون وبالاً علينا كلينا .

فشكرت لها هذه الصراحة وقلت أعاهدك اني أبقى محبك وحدك الى أن يصرح الطبيب بزوال الخطر . فحاولت أن تقنعني أن معاهدة كهذه ليست حكمة من قبلي ، وان الأفضل أن نبقى حرين الى أن يقرر الله تعالى أمراً حسناً لكلينا .

وخطر لي أن يكون الطبيب الذي دخل بيننا هو ذلك الطبيب الفضولي الثقيل على الرغم من أنها سمت لي طبيباً آخر مشهوراً في الاسكندرية .

وانتهى الصيف وفريدة وأنا في مثل جفاء . وعرف أهلها ما كان من صرم حبل الحب بيننا وقطع العلاقة . وقبل أن يهجم الشتاء عادت فريدة الى الاسكندرية ضيفة على أختها مرة أخرى بدعوى أنها لا تستغني عن علاج طبيبها الذي درس مرضها .

وآليت على نفسي أن أستمر بالدرس الى أن انتهي من دراسة الطب . قررت أن أكون يوماً دكتوراً ممتازاً طائر الصيت لكي تندم فريدة على تركي وتعود اليّ . فانظر ماذا يفعل الحب . الحب كالايمان ينقل الجبل من مكان الى مكان .

* * *

ما انتهت السنة المدرسية حتى ضاق صدري . علمت أن فريدة لن تأبى في ذلك الصيف مع اختها للاصطياف . ورأيت أن سني الدراسة التي أمامي متطاولة تكاد حياتي تنقضي كمداً قبل أن تمضي السنون : حياة شوق وحياة وجد . وحياة جوى . وحياة غرام بلا لقاء . وحياة لوعة بلا ابتسامة حبية تطفئها . ثورة نفس لا تخمد . كيف تطاق حياة كهذه . ولماذا الحياة التي لا تطاق ؟ أما من فرج لهذا الكرب ؟

كان مورد الرزق الشحيح يقذفني من الدراسة الى العمل . لكي يقذفني من لبنان الى مصر حيث استأنف المسترزق الذي درّ بني عليه أبي . أحقيق أن الارتزاق كان يدفعني الى مصر ، أم ان نجم فريدة كان يجذب نجمي اليها ؟

لا . لا . لست من الضعة بحيث أنقاد بخيط جاذبية وهمي الى فريدة . أذهب الى القاهرة فأكون في طريق الريح التي تحمل أنفاسها . ولكني لا أكون في مرمى بصرها

لئلاَّ تترفع بها خيلاؤها عليَّ . إذن فأكون في القاهرة . ويعرف أهلها أني هناك . وهي ستعرف أيضاً . ونحن نرى أي الجرمين أقوى جذباً للآخر .

أقول لك الحق يا عزيزي نعيم . كانت تلك مكابرة كاذبة مني . ما برحت الى مصر إلاَّ منقاداً بخيط حب فريدة الذي لا ينفصم

تأهبت في ذلك الصيف بشحنة من الحاصلات لرحلة الى القاهرة حيث يكثر زبائن أبي . وسافرت .

وعلى أثر وصولي الى القاهرة كتبت الى فريد منسي الصائغ أنبئه برحيلي وبعنواني بحجة الصداقة المتينة التي بيننا ، على أمل أن يرسل عنواني لاخته عسى أن تكتب لي . فردَّ ردًّا موجزاً بعد حين ليبرأ من العتب . ومضى الشهر إثر الشهر وفريدة لم تكتب . فكتبت لها اخبرها إني في القاهرة . فما أجابت فصحت مقاطعتها لي . وحق يأسي وامتد أساي . وجعل جواي يقرض احشائي . وإذا عزَّ الأمل فماذا يقوم مقامه غير الصبر . فأنعم الله بالصبر .

ورأيت إني اذا عدت الى لبنان فقد يقضي الغم عليَّ . ورأيت في منازه القاهرة شيئاً من التسرية عن نفسي . فآثرت أن أبقى فيها . ولعلَّ قربها من الاسكندرية مكنني فيها . كتبت الى ابن خال لي في بلدتنا ان يقبض البضاعة ويشحنها لي لقاء عمولة . وأرسلت اليه المال الذي معي لهذا الغرض . وجرت المعاملة بيننا مجرى حسناً واستتبت تجارتي وشرعت تتسع رويداً وأنست منها نجاحاً .

وكانت نفسي تحدثني أحياناً بأن أذهب الى الاسكندرية بزيارة لبيت بهيج بك رحمي صهر فريدة . ولكن عزة النفس كانت تردعني ردعاً عنيفاً . ولا سيما لأني لست واثقاً أن يرحب آل رحمي بي . ولذلك حرَّمت على نفسي المضي الى الاسكندرية حتى لأي سبب آخر لئلاَّ تظن فريدة اني أسعى اليها .

ولعلها نبذتني نبذ النواة .

الفصل الثالث

الحبل المنقطع

هذه يا عزيزي نعيم قصة صلتي بآل خليل منسي الصائغ وبالآنسة فريدة. وعندك باقيها وهو فاجعة لي كما علمت وكما رويت لي. أفليست فاجعة ومأساة يا أخي؟

وكان نعيم منصتاً لي كل الوقت يسمع ولا ينبس ببنت شفة الى أن قال: لماذا تحسبها مأساة وهي لم تنته بعد

قلت: انتهت. وأنت علمت كيف انتهت، وان كنت مفوضاً بأن تتوسط فيها فأرجو منك أن تستعفي من هذه المهمة. وقد حاولت السيدة وديمة أمس أن تعيد المياه الى مجاريها، فعادت وهي مقتنعة أن القناة التي تجري فيها المياه قد التوت ولم يعد ممكناً أن تستقيم

قال: ولكن فريدة قد اعتدلت . . .

فأجبت وأنا أكاد أغص بكلامي: لم يعد لي شأن بفريدة بعد أن صدق ظني بعلاقتها مع الطبيب الفضولي وهتكت كل عاطفة فيّ

كذبت فريدة عليّ بمرضها. ضحكت عليّ باعتذارها، مكر بي حبها. غشني لطفها. نافقت عليّ نظراتها. خدعتني ابتساماتها. هزئ بي كحل عينيها ودعج مقلتيها. سخر مني دلالها. لعبت عليّ دوراً هائلاً بتكسر أجفانها، وبلعثمة لسانها، وبحر أنفاسها وتنهداتها، يوم قالت لي متوردة الخدين خجلاً: ان بها داء النزف، وأنها لا تستحل أن تحمّلني معها عبء مرضها. فشكرت لها حينئذٍ طهارة ضميرها وصراحتها، وأكدت لها أني مستعد لتحمل هذا العبء أصرّت على الإباءة، وقالت نبقى صديقين.

يا لها من صداقة لم تتحمّل شطاط المكان فرسخاً ولا طي الزمان أمداً. تنوسيت في عام. ودفنت في حلك الليالي، فلم يعد يعرف لها تاريخ ولا مقام

* * *

لطالما ألمعت الى أن ذلك الطبيب الطفيلي سيأخذ من لبها فكرة. فكانت تهزأ بهذه المظنة ولطالما حذرتها من يلمعية [1] ذلك الفضولي فقد تتهوّر في خداعه. فكانت تتبرّم من ذلك التحذير أو أنها كانت تستنكف أن تحذر.

ها قد وقعت فيما حذرتها، وغفلت عما نبهتها. فماذا قالت حين هجرها ذلك الذل بلؤم، هل خطرت لها على بال، وتذكرت مني كل مقال: على أي حال ليس لفريدة عهد ولا وفاء. كانت تسبح حيث تطوف بها الأهواء، لا قلب إلا كتلة لحم يتدفق فيها تيار دم منها وإليها.

لا دماغ إلا كتلة رمادية اللون تتعاقب عن صفحات أليافها صور الخيالات بلا تسلسل

(١) اليلمعي الذي يخلط الصدق بالكذب

ولا ارتباط كما تتعاقب الصور المتحركة.

ولا حواس إلاّ أجهزة أعصاب تنقل صور المحسوسات الى تلك الصفحات حيث تنطمس في طبقات الخيالات بعضها فوق بعض

إذن ، أين مركز الحب في جسمانها .

أين نبضة الوجد في وجدانها .

أين هبة الهوى في مشاعرها .

أين حرقة الجوى في أحشائها .

لا حب ولا وجد ولا هوى ولا جوى.

ليس هناك إلا شهوة مادية — تبرّج وتمويه ألوان وأزياء ونفاسة دمقس

ليس هناك إلاّ صنم ثنيس ظاهرهُ مرمرٌ أصمُّ . فكيف يكون قلبهُ .

يا لضياع ذلك الحب — حبي — الذي كان كشعاع الشمس يغمر فريدة بحرارة الشوق على القرب والبعد سواء ، وبضياء الفكر الذي كان يلقي على صفحات الخيال صور حركاتها وسكناتها .

يا لضياع ذلك الغرام الذي كان هيكلها يسبح في بحر اثيره فأراه مثال الجمال الروحاني.

ويالضياع ذلك الهيام الذي كان يطوف بي في الفضاء حتى إذا عثرت فيه على ملاك اقول هذا هو فريدة بعينها .

ويا لضياع تلك الاماني التى لاحت فيها أشباح السعادة السموية . ضاعت الحقائق فاضمحلت معها الخيالات والأوهام .

***

وكان نعيم يسمع رثائي هذا وتأبيني لحبي مدهوشاً لا يتكلم. ولعله لم يعد يدري ماذا يتكلم

فقال : اني يا أخي أعذرك وأنت الآن في منتهى الانفعال . فخيرٌ لك أن تلجأ الآن الى ملهى تموّه فيه عن نفسك ، عسى أن تنسى ذكرياتك الماضية التي كنت أنا السبب في استذكارها . فأرجو أن تعذرني وتؤذن لي أن أفارقك الى الغد في مثل هذا الوقت وفي هذا المكان .

ومضى . وعدت الى منزلي وأنا أحس غمومي مطبقة على صدري تكاد تزهق روحي

تمزقت سحب الخيالات والأوهام وظهرت شمس ذكريات الحب الأول . انجلى طيف سلمى الزعفراني في مخيلتي كأنها لم تفارقني إلاّ اليوم . يالله الحسرات . يالله الغموم ! أين أنا من سلمى الآن وبيني وبينها بحر ومحيط . فأين نبتون الّه البحر يقلص الأوقيانوس لكي يضع القاهرة ونيويورك في صعيد واحد . انقطع حبل هذا الأمل منذ انقطع حبل الاتصال يوم الوداع . وكم كنت قاسياً يوم ورد لي خطاب من سلمى فلم أجاوبها عليه لأني حسبت المجاوبة خيانة في حب فريدة . لم أكن مقيداً بوعد لسلمى وانما كنت مقيداً بعهد لفريدة . أكذلك يكون جزاء الاخلاص .

علمني أبي الصدق . فأضرني الصدق. لو كاتبت سلمى حينئذٍ لكان لي اليوم سبيل الى الاتصال بها اذ تيقظ حبي القديم لها .

هل أقول تبّاً للإخلاص ؟

الفصل الرابع

لغز الحب

في مساء اليوم التالي وافاني صديقي نعيم النعماني الى نيوبار في الميعاد. ولما جلس قلت: لعلك موافيني لكي تعيد الكرة عليَّ مشفقاً.

قال باسماً: كلاَّ البتة. لقد فارقتك أمس وأنا لا أرى وجهاً للشفاعة. وقد أنزلتُ الستار على الموضوع منذ أمس كما أنزلته أنت، وانما وددت أن اطمئن على هدوء نفسك إذ فارقتك وأنت في ثورة نفسانية عنيفة جدًّا

قلت: أشكر لك عاطفتك الشريفة ياعزيزي. أنت أكثر خبرة مني. فهل يمكنك أن تقول لي كيف يمكن أن يرتد صدى الحب الشديد غشًّا وخيانة»؟ أو على الأقل فتوراً ثم انحرافاً؟

فأطرق برهة غير وجيزة ثم رفع رأسه ونظر فيَّ قائلاً: يلوح لي يا صاحبي أنك تريد أن تطبق الحب على الهندسة ـ هندسة الفعل ورد الفعل

فضحكت وقلت: أليس الحب سنَّة طبيعية؟ فيجب أن يتمشى على السنن الطبيعية

قال — حسناً. وتتوقع أن يكون لكل حب صدى

قلت — نعم

— ماذا كان صدى حب سلمى بنت الزعفراني لك؟

لو ثقبت دماغي رصاصة حينئذ لما صرعته كما صرعت قلبي طعنة نعيم هذه. أحسست بدوار في رأسي. كاد يعمي بصري. فوضعت رأسي بين كفي مطرقاً واستعرضت مخيلتي سلمى وأيامها ووداعها الأليم. وبعد برهة رفعت رأسي وقلت. حقًّا ان حب سلمى لم يرتد مني صداه إليها. ولكن بين الحبين فارقاً. لم أعاهد سلمى. ولكن فريدة عاهدتني.

فضحك نعيم وقال: ليس في سنة الحب يا عزيزي كلام ولا عهود ولا مواثيق ولا عقود. وإنما فيه برق يومض ورعد يقصف وشهاب يلمع ونار تتقد. لا سلطان للسان على القلب. نحب من غير أن نتكلم. ونتفهم الحب من غير أن نسمع صوته. نتكهرب بالحب من غير أن نلمسه. الحب أمواج روحانية بين قلب وقلب. تصدرها نبضات القلب الواحد فتصدم القلب الآخر فيتخافقان

قلت: حسناً ما بال قلب فريدة لم يحس بموجات نبضات قلبي.

قال — سل قلبك لماذا لم يحس بموجات نبضات قلب سلمى

قلت: عاد الآن يحس

قال: وعاد قلب فريدة يحس

قلت : « في الصيف ضيعت اللبن » الحب يا عزيزي ضربٌ من الجاذبية كتجاذب الأجرام السموية . والجرم الأكبر يجذب الجرم الأصغر . يتجاذب جرمان ، فاذا مرَّ جرم ثالث أكبر منهما على مقربة من أحدهما اجتذبه وخلّف الآخر وحده شريداً . . . وقد كان بيني وبين فريدة جذبٌ قويٌّ . ولكن لما قرب ذلك الطبيب الضخم بطبه اجتذب فريدة الى أن أصبحت بيننا مسافة بعيدة جدًّا . وقوّة الجذب تضعف كمربع البعد ، فلم يعد في الامكان أن نتجاذب . ولعل جرماً آخر أضخم من فريدة جمالاً أو مالاً أو كليهما مرَّ على مقربة من الطبيب فاجتذبه عنها . هكذا الحب جاذبية بين متجاذبين

ففكر صديقي برهة مبتسماً ثم قال : ولماذا لا تقول أن جاذبية الحب ضربٌ من المغنطيسية يكون فيه معدنان مغنطيسيان متقابلين فيتجاذبان . فاذا تدابرا تنافرا . فاذا تقابلت أنت وفريدة تجاذبتما . وإذا بقيتما متدابرين بقيتما متنافرين .

قلت : ولكن إذا عاد المغنطيسان متباعدين جدًّا تضعف قوّة الجذب كمربع البعد كما لا يخفى عليك .

قال : ولكن لا تنسَ أن للموجات الكهرطيسية تأثيراً عن بعدٍ سحيق . وللقلوب النابضة موجات كهرطيسية كالموجات اللاسلكية تؤثر في قلوب أخرى فتجعلها تنبض مثلها كما يجاوب الراديو نبضات الاذاعة

ففكرت هنيهة ثم قلت : تكاد توقعني في حيرة . أتريد أن تقول لي ان القلوب لا تتنابض إلاّ قلبٌ لقلب ؟

قال : نعم الحب نبضة من قلب لا ينبض لها إلاّ قلبٌ واحدٌ مثله . وأعني أن لكل قلبين لغة خاصة ليست لغيرهما .

قلت عجباً ! أليس الحب غريزة شائعة في كل القلوب بلغة واحدة

قال : بلى الحب الحيواني غريزة كما تقول والإنسان والحيوان الأعجم فيه سواء . ولكن هذا الحب الذي يسميه البشر عشقاً أو ولهاً أو هياماً ، أو تدلّهاً هو حب آخر علاوة على ذاك ، وإلاّ لما كان عندك فرق بين سلمى وفريدة .

قلت إنك تطرحني في وعر من شعاب هذا الموضوع لاحدود له .

قال : أجل ان الموضوع لكذلك

قلت : أرجوك أن تتبسط في هذا الموضوع لكي تنشلني من واهدة هذه الحيرة ، ما هو الفرق بين الحبين .

قال : الحب الأول هو شهوة غريزية شائعة في جميع الأحياء يثيرها فيها النضوج . وفي الأحياء الراقية يثيرها أيضاً جمال الطبيعة . وكان كلما ارتقى الحيوان ارتقى معه الجمال ، فاشتدَّ به الحب حتى صار شوقاً فغراماً الى آخر ما تعلمه من تعابير الحب وأصنافه .

قلت : ما الفرق بين الحب الشهواني

البسيط والوله المتعاظم .

قال : ذاك مفعول الغريزة وهذا اختراع المخيلة . كلما ازددت حبًّا أو شغفاً سما تخيلك لجمال الحبيب . كنت تبغي وصالاً فأصبحت تطلب خيالاً . تكاد تغفل ذاك وتتشبث بهذا .

قلت : أمرٌ غريب .

قال : أجل إنه لغريب ولهذا سُمّي الهوى العذري . الهوى العذري هوىً غريب لا يعيش إلاّ هنيهات التخيل فقط . متى كان الحبيب بعيد المنال تولى شأن حبه الخيال . يتمتع العاشق بصورة جمال المعشوق بدل تمتعه بذاتيته . تقوم الصورة مقام الذات ما دامت الذات ممنوعة ، فمتى حضرت الذات تبدّد الهوى العذري بخاراً . وبرز الهوى الغريزي . فحريٌّ بذاك الهوى ان يسمى الهوى المكري بدل الهوى العذري

فأطرقت مفكراً بحديثه مستغرباً فلسفته الى أن قلت : هل لك أن تقول لي الآن أين أنا من مراحل الحب هذه !

قال : لقد عبرتها كلها . وأنت تتنقل بينها كل يوم . تكون في حب غريزي فاذا بك انتقلت الى حب روحاني ، فالى هوى عذري . فكلما قرب الحبيب اليك كان حبك حيوانيًّا . وكلما ابتعد عنك صار حبك روحانيًّا .

بعد تفكير هنيهة قلت : هناك جميلاتٌ عدة فلماذا يقيد العاشق قلبه بحب عذري واحد ، لا يروي غلة ولا يشفي علة .

قال : في نظر العاشق ليست الجميلات في طبقة واحدة من الجمال . فهو يطمح الى أجملهن في نظره ، وكلما امتنعت عليه تعاظم جمالها في نفسه ، فيتعاظم حبها في قلبه حتى يصبح هوىً عذريًّا ، وحينئذٍ يكون أقوى سلطاناً من الحب الحيواني . ولكن هذا الهوى العذري لا يتسلط عبثاً بل يمنح الحب الحيواني قوة هي أضعاف قوته . ألا ترى ذلك في الفرق بين الحيوانات والبشر ؟

قلت : حقًّا ان الهوى الروحاني هو أقوى حب . أصبحت الآن أحب سلمى الزعفراني فوق كل حب وهي بعيدة عني ولا أعلم أين مقرها وماذا كان مصيرها . أصبحت أعبد طيفها ، أحب خيالها الذي يلوح في بالي ، أتلذذ بذكرياتها الماضية . يا لله ما هذا الحب !

قال : وفريدة الآن أقرب اليك جدًّا وهي في منال يدك .

أجل : أما قلت ان الحب الروحاني أقوى من الحب الحيواني . لم تعد فريدة مركز حبي . لقد بعدت فريدة عني جدًّا بمكرها وخداعها . دعها للقضاء والقدر . وأنا مثلها للقضاء والقدر . كل منا في اتجاه خاص : مغنطيسان متدابران .

***

وافترقنا نعيم وأنا على هذا القرار .

الفصل الخامس

الثعالب

فيما كنت في البنك أستصدر حوالة مالية تعرفت بالموظف القائم بالأمر إذ تلطف معي جداً. ورأيته بعد ذلك يمر بالقهوة التي اعتدت الجلوس فيها فدعوته لفنجان قهوة. وصرنا بعد ذلك صديقين. وفي خلال الحديث شكوت له من سوء حالة المنزل الذي أنزل فيه مع إني أدفع أجرة حسنة. فقال لي: اذا شئت أن تسكن معنا فعندنا لك غرفة منفردة مستوفية جميع وسائل الراحة. فسررت من هذا الاقتراح وقبلته شاكراً.

في المنزل أبٌ مسنٌ يدعى صديق الكرومي وزوجته وابنهما نسيم هذا وثلاث فتيات صغيرات. والظاهر أن السيد صديق تزوج متأخراً. فقد شاخ وأولاده لا يزالون صغاراً. وكان خياطاً. وقد قلّ عمله بسبب شيخوخته. ولذلك سُرَّت الأسرة بوجودي معها إذ أحمل شيئاً من عبء أجرة المنزل. وما لبثت أن أصبحت كواحد من الأسرة. واشتدت أواصر الصداقة بيني وبين نسيم وأهله.

وبعد حين من الزمن شعرت أن في البيت اضطراباً ولوائح غمّ ولفحات همّ، والسيدة عبلة زوجة الشيخ صديق تذرف دموعاً. فسألتها: ما الخبر يا سيدتي

قالت: أزمة لا أدري كيف تنفرج

قلت: لكل أزمة منفرج. فما هي أزمتك؟

قالت: قرر الأطباء أن عند زوجي قرحة في فم المعدة، ولا علاج لها إلا العملية العاجلة أو القبر، وليس عندنا الخمسون جنيهاً أجرة الجراح وكراء المستشفى

قلت: طيبي نفساً وقري عيناً. الخمسون موجودة.

قالت: ألف شكر يا عزيزي. ولكن يجب أن نفكر بوفاء هذا الدين أيضاً.

قلت: هذا أمر غير عاجل. العاجل هو العملية. ولكي يكون بالك مرتاحاً أتقاضى هذا الدين على مهل أقساطاً زهيدة كل شهر من أجرة سكناي معكم

فكانت الأسرة في سرور عظيم لتفريج هذه الأزمة. وبعد مدة النقاهة عاد السيد صديق الكرومي الى بيته سليماً معافىً شاكراً لله ولي.

وكان ثمت سرٌّ لا أفهمه وهو أن سليم الصافي أخا السيدة عبلة زوجة صديق تاجر أجواخ. وكان في امكانه أن يفرج غمة أخته وصهره. فلماذا لم يفعل؟ لم أجد تفسيراً لهذا السرّ الاّ ما علمته من أن سليم على صهره ديناً من ثمن أجواخ لم

يستطع صديق إيفاءها ، فلم يرد أن يضيف ديناً الى دين لم يوف . والأنانية حمته من تأنيب الضمير .

على أن ديني لم يوفَ ولم أصر على استيفائه لأني رأيت أن مورد صديق ضئيل وماهية ابنه نسيم من البنك ليست كافية أيضاً لسد عجز نفقات الأسرة . فبقيت أتجنب ذكر الدين لكيلا تنجرح عواطف الأسرة . وما زلت أدفع أجرة غرفتي .

***

وفي ذات يوم أعطيت نسيماً خمسين جنيهاً لكي يدفعها للبنك وديعة باسمي كالعادة ، لكيلا أضيع وقتاً في الذهاب الى البنك . وفي آخر الشهر ورد لي بيان البنك عن حسابي فيه وليس فيه ذكر للخمسين جنيهاً . فاستغربت الأمر ومضيت توًّا الى البنك وسألت عنها الموكل في الأمر فقال . لم يرد المبلغ للبنك من أحد قط . قلت إذن نسيم تصرف به ولم يقل لي . أظن أن الطريقة المثلى لاستيفاء هذا المبلغ منه أن ألتمس من البنك أن يستقطع من ماهية نسيم قسطاً كل شهر .

فقال الموظف : البنك لا يستقطع قرشاً من ماهيته لحسابك وإنما يقطع رجله من الدخول الى البنك . فأنصح لك أن تسوي المسألة معه مباشرة من غير علم البنك لئلا تؤذيه ولا تنفع نفسك . وسأنصحه أنا أيضاً أن يتلافى الأذى لنفسه ولك .

لا تدع أحداً يعلم بشيء من هذا .

فقلت له أشكر لك نصحك لي وله . لا أريد أن يؤذى الفتى وهو يكاد يكون وحده عماد البيت .

***

ورجعت الى السيدة عبلة أم نسيم ورويت لها تفاصيل ما كان . فكادت تجن من الأسف ، وشرعت تحاول أن تقبل يدي استغفاراً لابنها . فطيبت خاطرها .

ولما سئل نسيم عن سبب جريمته هذه قال إن عليه ديناً اضطر أن يوفيه على أمل أن يرجو مني أن أحسب المبلغ ديناً عليه ويكتب لي صكًّا به . وإنما كان يتحين الفرصة المناسبة لهذا الرجاء . فعذرته بعض العذر . ولكنني لم آخذ منه صكًّا . وشعرت أني إذا أصررت على استيفاء المبلغ أرتكب جريمة ضد هذه الأسرة المسكينة ، فمحوت المبلغ من ذاكرتي بتاتاً ... كأني مسؤول عن مظالم الزمن للناس أو جور القدر على البشر

علمني أبي أن أحسن معاملة الناس لأن حسن المعاملة شرط للنجاح . ولكنه لم يعلمني أن أتجاوز حسن المعاملة الى التضحية . وها قد أحسنت بل تصدقت فجوزيت خساراً

لله من أحكام أدب النفس الخائبة

تحسن يساء اليك . إذن أسيء فيحسن اليك

والضمير ؟

الضمير الذي رباه الوالدان ؟ من يستطيع كم فمه

***

في ذات يوم بعد حين جاءني سليم الصافي أخو عبلة وخال نسيم الكرومي وقال ، أنت يا سيد يوسف شاب ذكي مثقف طيب القلب جداً كما نعرفك وكما يقول الناس عنك . فعلى م تضيع وقتك ومجهود شبابك في تجارة قليلة الربح وسخة متعبة ؟ اقترح عليك اقتراحاً نافعاً لك ولي . لقد اختبرت أنا تجارة الأجواخ والربح فيها أضعاف أرباح البدالة (البقالة) . فاذا صفيت تجارتك وأضفت رأس مالك الى رأس مالي واشتغلنا معاً وجدت أرباحك مضاعفة .

وما زال يقنعني بهذه الشركة حتى اقتنعت واشتركنا .

وقد صدق حساب سليم ورأيت أن أرباحنا تتضاعف وسررت بحسن النتيجة . ولما ثقل الشغل علينا قال سليم : أظن أن ابن أختي نسيماً (الكرومي) يفيدنا جداً اذا استخدمناه كاتباً حاسباً . وهو متقلقل في البنك حيث أجره ضئيل . وفي الوقت نفسه يمكننا أن نستقطع من ماهيته الدين الذي لك عليه وعلى أبيه وقد طال عهده .

قلت لقد محوت ذلك الدين من دفتري ومن ذاكرتي . فلا تذكرني به . لا بأس أن نستخدم نسيماً وندفع له ماهيته كاملة مبجحة لأن معظم عبء الأسرة واقع على كاهله .

***

مضى على شركتنا بضع سنين كانت ناجحة . ولكني كنت ممتعضاً من شريكي سليم لأني كنت ألاحظ عليه تلاعبه أحياناً . وكان هو يمتعض أيضاً من ملاحظاتي . ولما لم يعد يحتملها طلب اليّ أن نحل شركتنا . فأجبته الى طلبه .

واقتسمنا البضاعة وسوّينا الموازنة باقتسام النقد والديون . وبقي له عليّ دين نقدي . واتفق في ذلك الحين أن تاجراً اشترى مني شروة بقيمة ١١٦ جنيهاً بالنسيئة بصك (كمبيالة) . فكتب نسيم الصك حسب العادة ووقع عليه المدين . ثم حوّلت هذا الصك الى سليم الشريك المنفصل من قيمة ما بقي له من الدين عليّ . انفصلنا على وفاق وبقينا صديقين .

وما لبث نسيم أن انفصل عني وانحاز الى خاله .

ورام سليم أن يوسع تجارته فاشترى واستدان . وفي ذات يوم التمس مني أن أضمنه في دين بقيمة ألف وخمسمائة جنيه . فلم أتردّد في ضمانته لأني لم أرَ في معاملته لي ما جعلني أوجس منه .

***

ولما استحقت الكمبيالة على ذلك المدين بقيمة ١١٦ جنيهاً فإذا البنك يطالبه بألف

ومائة وستة عشر جنيهاً (١١١٦) فجنّ الرجل لما رأى الكمبيالة ناطقة بهذه القيمة وهو قد وقع عليها بقيمة ١١٦ فما كان منه إلاّ أن أبلغ النيابة حالاً بتهمة التزوير. وما كان من النيابة إلاّ أن قبضت عليّ. ولما استجوبني وكيل النيابة قلت أن المبلغ بقيمة ١١٦ جنيهاً فقط. ولا أدري كيف حصل التزوير. وأما سليم فادّعى أني حسبت الكمبيالة عليه بقيمة ١١١٦ كما قبضها من البنك. وأظهر في دفاتره بيان الحساب الذي تسوّى بيننا وفيه قيد الكمبيالة بهذه القيمة، فظهر للنيابة أن التزوير حدث عندي على الرغم من اعترافي بالمبلغ الحقيقي وبإنكاري أني لم أسدد لسليم إلا ١١٦ جنيهاً فقط وأن الألف تسدّدت بضاعة. وكان الخطأ مني إني وثقت بأمانة سليم واستقامته. ولم آخذ منه «مخالصة» بيننا تنص على ما أعطى وما أخذ.

فسلامة نيتي وثقتي بسليم زجّا بي في السجن.

وفيما كنت في السجن أساوم محامياً للدفاع عني كان سليم يبدد بضاعته ويهرّب ماله ويرتب دفاتره. ولما استحقّ الدين الآخر الذي ضمنته عليه لم يكن له ما يوفي فعاد الدائن إليّ.

وبواسطة دفاع المحامي خرجت من السجن بكفالة مالية ووجدت نفسي في حالة إفلاس. فقدمت دفاتري للمحكمة.

وأخيراً أثبت التحقيق أن الكمبيالة المزورة كانت بخط نسيم ابن أخت سليم وان الألف التي أضيفت إليها كانت بخطه أيضاً. ولكن مع من تواطأ نسيم هذا؟ أمع خاله أم معي؟ بقي هذا سرّاً للقضاء. فحكم القاضي على نسيم بالجريمة وبرّأ خاله. وحكم عليّ بدفع المبلغ كله. ولولا اعترافي بالصدق أي أن أصل الكمبيالة ١١٦ فقط وظهور حسن نيتي وبراعة المحامي لبقيت في السجن بضع سنين.

هذا كان جزاء طيبتي وحسن نيتي وخدمتي للانسانية وعطفي على آل الكرومي. فما أصدق القول «اتق شرّ من أحسنت إليه»

ولما نظر القاضي في قضية تفليستي وبُسطت له جميع ملابساتها ووجد أن ما عندي من المال والبضاعة يغطي الدين الذي عليّ قال في حكمه: «لم أجد في مدة قاضويتي تفليسة أشرف من هذه التفليسة»

وخرجت من المحكمة وليس عندي من رأس المال غير هذه الشهادة الثمينة من القاضي العادل. وهي حسبي والله نعم الوكيل يوم الدين.

ولما حدثت هذه الخيانات خرجت من بيت الكرومي مشفقاً على أولئك الصغيرات، واستأجرت منزلاً صغيراً ووضعت فيه الأثاث الضروري واستقللت في سكناي

وبعد تصفية تجارتي وإيفاء المطلوب مني بحسب القانون بقي معي من النقد قدر

زهيد أستعين به ريثما أتوفق الى تدبير آخر لمرتزقي .

* * *

لاح لي أن أبي كان مخطئاً يوم علمني أن الاحسان للناس خير سبيل الى السعادة، لأن فيه سلاماً للضمير، وسروراً للنفس ليس بعدهما سرور . وأنا لم أجد فيهما إلا خسراناً واساءة لي

وقد تعلمت من معاملة سليم الصافي وابن أخته نسيم الكرومي أن الناس متى عثروا على شخص طيب القلب حيّ الضمير اكتشفوا لقطة يسهل عليهم استغلالها وهضمها بلا عناء . فالرجل الرجل هو الذي يغنم الفرص ليكون هاضماً لا مهضوماً . وميت الضمير يلتهم الضمير الحي . والطالح حَلَمٌ يعيش على دم الصالح . والخبيث خطرٌ ينبت على الثمرة الشهية ليتغذى بها .

لماذا لا أكون حَلَماً أو خطراً فاستغلّ خير غيري . ولكن كيف أستطيع أن أفعل وسيف الضمير مسلول فوق عنقي ؟

الفصل السادس

الانسان الضاري

بعد ان خرجت من المحكمة عكفت مساء الى إيوان فندق الكونتننتال حيث اعتدت أن أجلس في بعض الأحيان مع بعض الأصحاب لكأس من الشاي أو القهوة، وجلست وحدي في زاوية بعيدة عنها أحاسب نفسي على ماضيّ .

عند ذلك جاءني صديق حميم هو الأستاذ صلاح عادل المدرس في كلية الحقوق وجلس معي وهنأني ببراءتي وعزاني بخسراني وتمنى لو يستطيع أن يساعدني بشيء . فشكرت له عطفه وقلت : ناهزت الأربعين من العمر . ولكني كنت أحس أني مقارب الشيخوخة لأن النكبات التي مرّت بي منذ الصبا الى هذا الحين أهرمتني : اخفاق في الحب لم يخفقه قيس ليلى .

خيبة في الصداقة لم يخبها يوسف الصديق في اخوته .

وانخداع في أمانة الصحاب لم ينخدعها المسيح في أمانة يهوذا .

أحببت بكل جوارحي فكوفئت بخيانة صادقت وصدقت فخُدعت .

أحسنت فأُذيتُ .

وآسيت فألمت .

تصدّقت فنُبهت .

عطفت فقسي عليّ .

ترى ماذا أسأت حتى كوفئت هذه المكافآت الرديئة ؟

أجل كسرت قلب فتاة أحبتني وأحببتها في عهد الصبا تدعى سلمى الزعفراني، أيمكن أن تكون هذه النكبات عقاباً لي لأني خيبت أمل سلمى ؟ ...

ولكني لم أعد سلمى أي وعد حتى أقول إني أخلفت لها وعداً أو نكثت لها بوعد .

هذا عالم لا يعيش فيه الصديق والأمين أو المخلص . ان الذين نفعتهم من التجار وغير التجار والأصدقاء لم أرَ واحداً منهم يؤاسيني في نكبتي ، لئلا يضطروا أن يعرضوا عليّ مساعدة . ولعلّ كثيرين منهم ما زالوا يظنون أني مرتكب جريمة التزوير، وإني ما نجوت إلاّ بمهارة المحامي . ولعلّ بعضهم كانوا يتسلون في أحاديثهم بتفاصيل قصتي ويزخرفونها بأباطيلهم .

وكان صديقي صلاح يسمع رثائي لنفسي مطرقاً من شدة تأثره واشفاقه عليّ . ولما سكت متنهداً رفع نظره اليّ وقال : —

لقد روى لي الأستاذ حلمي محاميك قصة تفليسك، وهو آسف جداً للحيف الذي وقع عليك فجئتك . لا لكي أواسيك لأنك لم تخسر في قضيتك إلاّ المال . والمال في

منال يدك تحصله بقليل عناء . وإنما جئتك لكي أهنئك بالشرف الذي منحكه القضاء البشري . وما كانت شيمة القضاء البشري أن تمنح شرفاً لأحد . بل القضاء يحكم على المجرم بعقوبته ويتفضل على البريء بالاقرار ببراءته — قطعت الألسنة التي تشمت بك يا عزيزي، ماهي إلاّ ألسنة الأفاعي تقطر سمّاً

فقلت : لم أرَ يا أخي إلاّ ألسنة تقطر عسلاً . ولم أدر ان في العسل سمّاً إلاّ اليوم . لأني كنت معوّلاً على الآية الانسانية القائلة : « ظن بالناس خيراً الى أن يبدو لك منهم شرّ » .

فهزّ رأسه وقال : أنا أنصح لك يا أخي أن تعكس هذه الآية التي تظنها انسانية وما هي إلاّ شيطانية . ظنّ بالناس شرّاً الى أن يثبت لك الخير منهم . إنك ترى نفسك على الأرض بين أناس من الانس تظنهم انسانيين وما هم بإنس انسانيين . ليس على الأرض إلاّ فيالق من الجن الشياطين يعيثون في الأرض فساداً ، وأسراب من الملائكة الأبرار يفرّون من أمامهم الى الكهوف لتختبئهم والى الأدغال يستخفون فيها . وأما فوق الأرض فلا ملائكة ولا تحت الأرض أبالسة . وما الأبالسة إلاّ هؤلاء الذين تراهم على سطح الأرض بشراً وما هم بشرٌ . مازالوا كما نشأوا حيوانات تتنازع البقاء .

فقلت : إني أستغرب قولك هذا وأنا أعتقد ما علمته من أقوال الحكماء والكتاب أن تنازع البقاء الشائع بين البهم في المملكة الحيوانية تحوّل الى تعاون وتكافل للبقاء والارتقاء في المملكة الانسانية . وبه تفوّق الانسان على الحيوان

فقال ضاحكاً : أجل هذه سنة التطور التي تسمى أحياناً سنة الارتقاء . فلا يخفى عليك أن هذه السنّة قلما تكون نقضاً للموجود ، بل يغلب أن تكون إضافة الى الموجود . إن للحشرة جهازاً هضمياً ، وللزحافة جهازاً هضمياً ، وللانسان هذا الجهاز أيضاً . ولكن الزحافة أضافت الى جهازها الهضمي هيكلاً عظمياً وجهازاً عصبياً ، والانسان أضاف الى هذه الأجهزة كلها جهازاً دماغياً عقلياً أيضاً . أعني انه لما ارتقى الانسان الى هذا الحد لم يتخلّ عن جهاز الحشرة الهضمي ، ولا عن هيكل الزحافة العظمي ، ولا عن جهاز البهيمة العصبي ، بل أضاف الى كل هذه دماغاً يعقل .

وهكذا لما ارتقى الانسان لم يتخلّ عن بطش الوحش الضاري ، ولا عن فتك الذئب ، ولا عن خبث الصل ، ولا عن مكر الثعلب ، ولا عن لؤم ابن آوى ، ولا عن خساسة الحنفسة ، ورثاء الحرباء ، ونفاق الرتيلاء ، وغدر الهرة ، الى ما هنالك من رذائل الحيوانات . فهذا الحيوان الذي تسميه بشراً راقياً ، لم يغير تطوره طباع حيوانيته بل لوّنها بألوان البشرية ، وطلاها بطلاء الانسانية . تحت هذه الانسانية التي تغرك بجمالها وطهارتها ،

تكمن طباع البهيمية الرذيلة، حتى إذا تهيج الطبع الحيواني برزت تلك الأخلاق الشريرة، فلا تؤمن يا عزيزي لمحاسنة الناس ومجاملاتهم وودهم وكرمهم لأنهم مازالوا حيوانات ضواريَ .

فتعجبت من كلام صاحبي هذا وقلت : ولكنك يا عزيزي سهوت عن الاخلاق . الانسان ارتقى جداً عن الحيوان، ليس بجهازه العصبي الدماغي العقلي فقط، بل بأخلاق بنيت بها المدنية الحاضرة . فهل تستطيع أن تتصور مدنية بلا اخلاق . وما معنى التطور إذا لم يترقَّ البشر في الأخلاق والطباع، كما ترقوا في الأبدان، وتطوَّروا في الأدمغة، وارتقوا الى أعلى عليين في العقول . ومن أين جاءت لهذا الانسان الذي لانزال نحسبه حيواناً ضارياً، أخلاق المحبة والرحمة والرفق والعدل والأنظمة السياسية والقضائية والقوانين الخ .

قال ضاحكاً : لقد فكرتني بأغرب نوع من أنواع المكر الانساني الذي يتفوَّق به الانسان على كل مكر حيواني . هذه القوانين التي تستنصر بها، هي أبلغ أنواع المكر . ما لزوم هذه القوانين التي يتبجح بها الانسان، ويتعالى على الحيوان الأعجم إذا كانت الأخلاق قد ارتقت الى المحبة والرحمة والرفق والعدل . أليست هذه القوانين والمحاكم والقضاء والاحكام شهادة ناطقة صادقة على أن الانسان شرير الطبع لا يزال متخلقاً بأخلاق الثعلب المكار، والصل الخبيث، والخنفسة الخسيسة، والحرباء المرائية الخ، وقد زعم انه اخترع القضاء والقوانين لكي يتلافى هذه الشرور .

قلت : إذاً في خلق الانسان ميل الى تلافي الشرور، ولذلك اخترع القضاء والقوانين لتلافيها .

فقهقه وقال : وهل تلافاها؟ أم زادها شراً على شر؟ هل ترى في القوانين انصافاً وفي القضاء عدالة؟ هل أنصفت القوانين الضعفاء من الأقوياء؟ . هل جعلت بؤس المعدم يقف ليصد بطر الثري؟ ألا تحكم المحكمة عليك بالحبس إذا اختلست قرشاً وبغرامة قروش إذ جرحت شخصاً جرحاً بليغاً . كأن المال المسروق أعز جداً من البدن المجروح . وهل هذه القوانين فرّقت العدالة على الناس بالسواء؟ أليس بين الناس تفاوت في التمتع بالعدالة؟ فاذاً هذا القضاء وهذه القوانين لم تتلافَ شرور البشر، ولم تكبح جماح الطباع الحيوانية التي لا تزال مصاحبتهم من عهد الفهد الشرس، والذئب الفاتك، والثعلب اللئيم، والصل الخبيث الخ . الانسان يا صاحبي حيوان ضار عاقل، وعقله رقّى ضراوته، وعظم خبثه، ومكره ولؤمه، وقوّى بطشه وفتكه .

فقلت : انك يا صاحبي تجعلني أمقت هذا الانسان وأهرب منه . ولكن الى أين؟

قال : تهرب الى الحذر والايجاس منه .

لا تظن أن ما تسميه تطوراً نسخ من هيكل الانسان صورة الحيوانية الشريرة، أو لطف جوهر البهمية المفترسة . بل بالأحرى تطورت فيه هذه الحيوانية أيضاً ، فتطور المكر الى نفاق، وتطوّرت الحيلة الى دهاء، وتطورت الشراسة الى فظاعة ، وتطورت القوّة الى ظلم ، وتطوّر الميل الى جشع، والشوق الى نهم ، والحب الى شهوة . فما تسميه ارتقاءً في الإنسان إنما هو ارتقاء في الحيوانية والبهمية أيضاً، ارتقاء في الشراسة ارتقاء في التنكيل والتفظيع . أجل لا يزال هذا الإنسان حيواناً . فاعلم أنك تعامل حيوانات، نعم حيوانات تعامل . والحيوانات ضربان : ضوار وأنعام . وذئاب وأغنام . وأفاع وحمام. فان كنت غنمة كنت غنيمة للذئاب ، أو حمامة كنت فريسة للثعالب والأفاعي ... لقد كنت يا عزيزي غزالاً نشيطاً سريع الجري . فلما غفلت انقضت عليك الأسود والذئاب وجعلت تنهشك ، لا أقول لك كن ذئباً لكي تنهش وتشبع ، أو أسداً لكي تفتك وتتخم ، وانما أقول لك ابق غزالاً نشيطاً لكن يقظاً . ولا بأس أن تكون حمامة وديعة . ولكن حاذر أن تغمض عينك عن الأفاعي والثعالب لئلاّ تسطو عليك فتفترسك .

لا تكن لعجة ساذجة، وإلاّ فالضواري لك بالمرصاد . وإنما كن جاموساً مستعدّاً للنطاح اذا سطت عليك الأسود والنمرة

إعلم يا عزيزي أن أولئك الضواري لا يقصدون الى الأفيال ذوات الخراطيم التي تصفع وتصرع، ولا الى الجواميس ذوات القرون التي تبقر البطون ، بل يقصدون الى الأغنام الصالحة ، والأنعام المسالمة، لكي يفتكوا بها .

كلما ظهرت منك طيبة القلب أغرت هؤلاء الأشرار الخبثاء أن يحوموا حولك ليقتنصوك . فلا تبالغ في الطيبة. ولا تغالِ في التسامح لئلاّ تكون فريسة للطامعين الغاصبين . فإن تسامحك مع آل الكرومي أطمع نسيبهم سليم الصافي أن يغدر بك .

لا تعتمد على القوانين في الحرص على نفسك ورزقك ، فهي أوراق صماء عمياء ، لا قوّة لها بنفسها لكي تحميك . ولا تعتمد على منفذي القوانين ، فما هم إلاّ من طينة هؤلاء البشر الضواري الذين حذرتك منهم .

الفصل السابع

من عالم الغيب

وكنا قد جلسنا في الصف المشرف على الطريق في الكونتينينتال كعادتنا نشاهد السابلة . وما هي إلاّ دقائق حتى ألفتت نظرنا سيدة برزت من باب الفندق العظيم ، يمكن أن نخاطب بلفظ « سموّك » إذا لم تُخاطب « بذات الجلالة » . لم يشاهد في الشرق مثل ذلك السموّ الأرستوقراطي . وافت تتهادى بحلتها السندسية الأنيقة كالطاووس في إبّان تنفشه . وفي أذنها وعنقها وأصابعها من الجواهر ما يموّل مصرفاً (بنكاً) . وفي محجريها مقلتان تتدفقان أشعة تخترق الصدور وتبهر العيون ، وثغرها يومض بروقاً تخطف الأبصار .

جلست على كرسي فخم أنيق كأنه معدٌّ خصيصاً لها . ثم أطافت نظرها في المكان ورمت ببصرها الى الميدان . واستوقف ناظريها مجتمعُنا ، ونحن مأخوذان بتلك الأبّهة السماوية لا نستطيع أن نرد بصرنا عنها ، كأنّ أشعة مقلتيها أسلاك ذهبية اشتبكت بأحداقنا واعتقلتها . وأوسعتنا تحديقاً إذ لاحظت انبهارنا . وحملقت قليلاً ، فارتدّت أبصارنا مسحورة

لم يمكننا أن نحكم في أية سنٍ هي . فقد تكون كاعباً ، أو صبية ، أو في شرخ الشباب الناضج ، أو أول الكهولة .

بعد دقائق أقبلت عليها من باب الفندق فتاة أخرى لا ندري أملاك هي أم إنسٌ . سبحان من أبدع . ليس لقلم قدرة على وصف ذلك الجمال الروحاني . تقدمت إليها ووضعت كفها على كتفها وجعلت تكلمها همساً . ترى هل هما شقيقتان ؟ أم الثانية بنت الأولى ؟ الله أعلم .

هي دقيقة وإذا بسيارة ضخمة عظيمة القدر قد وقفت أمام سلم الفندق . فألفتت الأنظار واستوقفت المارّة للتفرّج عليها ، لأنه لم يوجد في مصر في ذلك الزمان سيارات إلاّ لسموّ أمير البلاد ، ولقليل من الأمراء والكبراء ، لأن اختراع السيارة كان ابن ذلك العهد . ومشت المرأتان الى السلم ، فتناول يديهما حوذيان وأنزلاهما الى السيارة فصعدتا إليها واستوتا فيها شمسين في أفق واحد . وكان ذلك من شواذّ الطبيعة . ودرجت السيارة تستوقف المارة الى أن توارت .

وبقينا نحن برهة نتحدّث في ذلك الجلال البهيّ . من أي ملكوت هي (أوهما) ؟ أإنكليزية ، أو أميركانية ، أم أفرنسية ... أي نوع انساني . رجح لنا أنهما أميركيتان ، لأن هذا الترف الباذخ نادرٌ في غير الأميركانيات الثريّات .

* * *

لجأت في تلك الليلة الى سريري وذاك الاقنومان السماويّان لا يبرحان من مخيلتي. هل نبض حبٌّ جديد في قلبي ؟ هل تعشق الأرضُ الشمسَ ؟ لا بل تعبدها لأن لها منها الحياة.

أما تبتَ عن الحب يا هذا ؟ هل أتعرّض لحبيبة أخرى في بقية الحياة؟ وهل بقي من الحياة ما يسع حبًّا.

وكان حديث صديقي صلاح لا يزال يتردّد في ضميري، حتى خُيِّل لي أن هذا العالم المسمى ملكوت الانسان ما هو إلاّ مملكة الشيطان أو مستعمرته. لو وقعت عظة صلاح في نفسي موقع القنبلة في البيت لدكتها. شرعت نظريتي في البشر تتغير، وفي العدالة تتعدّل، وفي الأخلاق تتطوّر.

آه. ليت الشباب يعود.. لعلي أصلح أغلاطي، وأجدّد كفاحي، وأرمي به الى الفلاح، حسب عظة صلاح.

* * *

في المساء التالي رأيتني ماضياً الى ايوان الكنتينتال بقوة لا تقاوَم. لا أدري من أي جوّ نزلت عليّ تلك القوة فساقتني رغم أنفي الى ذلك الفندق لأني لم أعد في حالة تسمح لي بالتمتع بلذة الحياة، ما دام القلب مفعماً غمًّا، والصدر مطبقاً همًّا.

جلست في موضعي المعتاد، وكأنّ أجفاني معقودة بأسلاك متصلة تارة بذلك الكرسي، وتارة بباب الفندق الواسع الذي بدت الملكة منه أمس.

يالله ! ما أعجب عجائبك يا ربُّ، لأول نظرة في ذلك الباب الرحيب، بدت ذات الجلالة تتهادى بثوب أبيض ناصع، لا أدري من أي نسيج هو، لا ديباجة فيه سوى نمنمةٍ منمقة من البياض أيضاً. بدت كأن الشمس أطلت في كبد السماء من بين الغيوم فقشعت السحب من حولها، وكأنّ الجلد كله ظهر بياض نهار لا تغشاه نطفة من غمام.

وتقدمت وجلست على كرسيها يسند ظهرها ظهرُهُ المخملي المائل الى الوراء. وشرعت الأحجار النفيسة تتألق في أصابعها وأذنيها وعنقها وتاج شعرها.

وأرسلت أبصارها الهوينا هنا وهناك، تستكشف الجلاّس، وتتبين حركات الناس، وما وقع نظرها في ناحيتي بل تجاوزها. ولماذا تختصني بنظرة بين عشرات الناس ومئاتهم وألوفهم. حقًّا إني لغريرٌ بأن أفكر بصلةٍ بيني وبينها سوى صلة الجوّ يحوينا كما يحوي جميع الناس.

سبحانك اللهم الحاجب أسرار الكون، والمغلق غوامض العالم. ما هي إلاّ هنيهات حتى تقدّم اليّ الساقي (الجرصون) وقال: « تلك السيدة الجالسة وحدها في اليمين تدعوك اليها »

فحملقت فيه وقلت: أنت غلطان، ليس اياي من هي تدعو.

قال : « بل أنت هو . لقد أرشدتني اليك بصراحة ووضوح .

— من هي ؟

— لا أعرف عنها شيئاً سوى أنها سائحة عظيمة . ربما كانت أميركية .

— قل لها أن تأتي الى هنا ان كانت في حاجة اليّ .

فتردد الساقي وقال : لا أظن أحداً في الدنيا يجاوب هكذا على رجاء سيدة عظيمة كهذه حتى ولو كان ملكاً . لقد أبلغتك الرسالة وأنت حرٌّ فيما تفعل.

وانثنى الساقي في سبيله، وتقدمت اليها وانحنيت لديها . فبسطت يدها مرتفعةً . فما شعرت إلاّ رأسي ينقضّ على تلك اليد العاجية وفمي ينهب قبلة من سلامية تلك الكف وهي في كفي. وقلت بالانكليزية : إني في خدمتك يا مولاتي إن كان الساقي لم يخطىء في استدعائي اليك .

فأجابت بالانكليزية الفصحى. لم يخطىء، إياك دعوت . تفضل اقعد

وأشارت الى الكرسي المقابل لها والخوان بيننا . فقعدت . وقالت باسمة : لماذا كنت أمس واليوم تحدق فيّ بلا انقطاع؟

قلت: كيف عرفت أني كنت محدقاً فيك؟

قالت : رأيتك كذلك

قلت : اذاً كنت تنظرين فيّ بلا انقطاع فلماذا ؟

قالت بابتسامة ساطعة وبخيلاء : تحديقك بي ألفت نظري فوددت أن أتبين غايتك .

— حسنٌ . فماذا تبينت من غايتي ؟

— بقيت غايتك سرّاً لي. فلماذا لا ترد نظرك عني .

— عجباً . أما طاف نظرك على جانبيك فرأيت كل الأحداق من حولك تمنطقك . فلماذا تخصينني وحدي بهذا السؤال ؟ وهل للشمس أن تقول للسيارات لماذا توجهن أبصاركنّ اليّ ؟

فتبسمت ابتسامة لمعت كوميض برق وقالت : وما شأن الناس بي حتى إذا جلست برهة هنا امتلأ المكان جلاّساً .

قلت : لله درك يا سيدتي. وهل يستطيع الجلاّس أن يفلتوا من حبائل هذا البهاء المغنطيسي ؟ هل يقدر السيار أن يخرج من منطقة الجاذبية ؟

فقهقهت قهقهة لطيفة وقالت : أظنك بين السيارات زُحل .

قلت : ما الذي أغلطك هكذا؟

قالت ضاحكة : لأن أكاليلك النورانية تستهوي الراصدين .

قلت : ليتني كنت عطارداً لكي أكون أقرب السيارات الى الشمس .

قالت: فولكان أقربها . أفلا تتمنى أن تكونه .

قلت : ألا خوف من الاحتراق في مكان فولكان .

قالت : احترق فولكان وانتهى أمره وصار جمرة

فتجرأت وقلت : وأنا قد احترقت وصرت جمرة حب.

قالت: أظنك جمرة حبٍ أوشكت تنطفىء

وازددت جرأة وقلت : إذا نفخت فيها نسمة حياة أذكيتها إذ لم تزل فيها بقية من حياة الحب غير قليلة .

قالت: أتتوقع مني نسمة حياة أم دمعة حب؟

قلت : منكِ النسمة ومني الدمعة .

قالت : وهل عندك دموع ؟

قلت : أليست لي عينان بغدتين دمعيتين

فحملقت فيَّ وقالت : أحقيقي أن لك عينين تدمعان .

قلت : كيف لا ؟ ألست في موكب العشاق أحمل العَلَم ؟

قالت : إنك مدينٌ لي بعشر دمعات . فلماذا لا توفيها إذن ؟

فحملقت فيها مندهشاً وقلت : متى كان هذا وأين ؟

قالت ضاحكة : أتنكر الدين هرباً من الوفاء. أم أن دمعك غاض، أو أن غدده جفت ؟ هل بكيت في حياتك ؟

وكنت أنعم النظر عسى أن أتوسم فيها سحنة كنت أعرفها فغيرها الزمان. وقلت: البكاء ليس شيمة الرجال يا سيدتي .

— إذن تصرُّ على عدم ايفاء الدمعات.

— كلاَّ . لا أصر ، وإنما يظهر لي أنك تبغين أن تمنحيني عشر لوعات لكي تتقاضي مني عشر دمعات بدلها .

لا أظلمك يا سيدي. تطبق الآية الذهبية: «كما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوا أنتم بهم هكذا أيضاً».

اشتدت حيرتي بهذه المرأة إذ لم يخطر لي أني رأيت في حياتي امرأة أجنبية تكلمني بالانكليزية الفصحى قبل هذه . فقلت : لعلك يا سيدتي مخطئة . فما غرك أنا .

فقهقهت ونطقت بالعربية : لست مخطئةً البتة . إني أكلم السيد يوسف العنَّابي .

فلما رنت في أذني اللهجة اللبنانية حملقت فيها وتوسمت السحنة القديمة من خلال ذلك البهاء . وقلت : سلمى ؟ .... الزعفراني ؟ أحقيقة أرى أم حلماً .

فقالت : بل حقيقة سلمى ترى ، عقيلة توم ستنفورد ملك الكوتشوك في الولايات المتحدة الأميركية ، صاحب مئتي مصنع للمطاط على اختلاف مصنوعاته .

فأجفلت وقلت . إذن لم يخطىء ظني إني في حضرة ملكة الآن . فعذراً ومغفرة لما يمكن أن أكون قد ارتكبت من سوء السلوك .

قالت : لقد تركت عرش المملكة الى حين وجئت الى الشرق لأجل معين. وسنبرح قريباً الى لبنان . أما أنت ماضٍ الى هناك لصيفية .

— قد أمضي .

عند ذلك أقبلت الفتاة الصغيرة فعرّفتني بها قائلة « مس دورا ستنفورد ابنتي ». ثم عرّفتها بي : — « المستر يوسف العنابي صديق قديم » اسبقيني الى السيارة يا عزيزتي

فمضت الفتاة وقلت لسلمى : ألا تمهلين هذا الملاك ريثما نتبرّك به هنيهة ؟

فقالت : أتريد أن تستذرف منها أدمعاً كما استذرفت من أمها، إنها غصنٌ رطيب. أتستحل أن تهصره ؟

فقلت هل يمكن العود الصلب وهو عند جذع الدوحة أن يقرب من الغصن النضير في أعلاها يا سيدتي . قُطعت اليد قبل أن تهصره ! لو كنتُ فنناً لدناً وارفاً لكنت أظلل هذا الغصن النضير بأوراقي لكيلا تلفحه حرارة الشمس : آه . ليت الشباب يعود.

فقالت : ليتك كنت فنناً .هل تنفع ليت ؟

فقلت : لقد انقضى عهد نضارتي ياعزيزتي ولكن عهد نضارتك طال، فما أغرب أسرار هذا القدر. بالله كيف عرفتني وخفيت عني ؟

فضحكت وقالت : عرفتُ كل شيء عنك . وأنتَ لاتدري، إني عينتُ ملاكاً يرعاك ويتسقط أخبارك .

فقال : أحقيق أنك عرفت بسقوطي أيضاً .

فقالت مثلك لايسقط . إسمح لي الآن، فإن ابنتي تستبطئني في السيارة ، يجب أن نلتقي في لبنان .

* * *

عدت في ذلك المساء الى منزلي الصغير أترنح من نشوةٍ لم أستطع تفسيرها .هذه امرأة كانت عشيرتي في أيام الصبا ، عشرة جيرة غير قصيرة . كنت أعطف عليها ولم أدر أنها كانت مدلّسة بي إلاّ حين قضى القدر أن ترحل الى أميركا . لم أدر أنها مدلهة لأن تربية الحشمة في ذلك الجيل وفي ذلك العهد كانت تغلق قلبها على سرّ حبها . ولما فوجئت بالفراق انفضّ ختم ذلك القلب فباحت بذلك الحب .

ذهبتْ الى أميركا فحوّلت البيئة مجرى حياتها . فبدلاً من أن تكون زوجة يوسف العنابي البدّال صارت زوجة توم ستنفورد ملك المطاط المليوني ، تبذخ وتترف وتبطر أكثر من ملكة . وقد منحها الله بدائع الجمال وروائع الجلال . فما شأني بها، وما مطمعي منها ؟ ولماذا تتصباني اليوم وهي ذات بعل عظيم الشأن ؟ ألعلّ الحب الجديد لم يطمس الحب القديم ؟ ولماذا أصبو إليها وأنا متدحرج الى هاوية الهوان ؟

ويحي ان هذه المرأة تضرم نار وجدي من جديد لكي تتلهى بولوعي وتستوفي حقها من دموعي . لعلها تهيج الغرام بي لكي تتمكن من الانتقام . لا أستطيع أن

أنكر عليها هـذا الحق ولا أستطيع أن أمنعه عنها .

آه . ليت الشباب يعود .

في الصباح التالي تناولت من البريد رسالة ففضضتها فإذا هي منطوية على حوالة منها بألف جنيه، وعلى كلمتين مختصرتين أيضاً تقول فيهما أنها تقدم هذه القيمة الزهيدة إذ لعلي في حاجة إليها الآن . فلا ينبغي أن أشعر باحتياج . الى اللقاء .

فمضيت توًّا بالحوالة الى الفندق لكي أردّها لها فقيل لي أنها وبنتها برحتا الى الأقصر . فبعثت بالحوالة إليها مع كلمة شكر بليغة لفحتها نسمة حب .

وعدت الى منزلي شاعراً بتوهك فجنحت الى سريري على نية أن أتجنب في اليوم التالي حضور «المزاد» المؤلم في متجري حيث يتناهب التجار بضاعتي استيفاءً لديونهم .

* * *

في اليوم التالي ما إن ارتفعت الشمس عن رأد الضحى حتى دخلت على مخدعي سعادُ بنت صديق الكرومي الكبرى وهي في نحو الثالثة عشرة من العمر وارتمت على سريري عند قدميَّ باكية بكاءً مرًّا . فأجفلت وقلت : ماذا بك يا سعاد ؟ هل من خدمة لكم فأقضيها إن كنت أستطيعها ؟

قالت وهي لا تزال تشهق : نعم ياسيدي يوسف . تقبلني خادمة عندك من غير أجر .

قلت : لا تصلحين خادمةً يا بنيتي . وعندي حسن البربري كافٍ لخدمتي . وقد لا أحتاج له لأني شاعر بمقدم مرض يقتضي مضيَّ الى المستشفى .

قالت : لقد وقفت نفسي أمةً لك مدة حياتي، سواء في المستشفى أو بعد عودتك منه . لأني لم أعد أطيق الإقامة في بيت كنتَ فيه كريماً فخرجتَ منه مكلوم النفس . ولم أرَ ملجأً لي إلاّ العبودية لك . لم تغمض لي عين منذ فهمت جيداً ما كان من أمر ذويَّ لك . فرحماك لا تصدّني .

فقلت : سمعاً يا بنيتي سعاد . لم أبقَ أنا ذلك الانسان الذي تعهدينه كريماً . لقد علمني صديقي الفيلسوف أمس أن الإنسان حيوان ضارٍ . فأنا اليوم ذئب أو أفعوان . فلا تقربي اليَّ

فقالت : لا تستطيع ياسيدي أن تغير طبعك الكريم لأن معلمتي علمتني أمس أن من شبَّ على خلق شاب عليه .

فقلت : أنت الآن ملاك طاهر، وما أنا بقديس، فلا تجربي شهواتي الحيوانية . عودي الى أهلك . وقد غفرت لأخيك وخالك منذ كنت كريماً قبل أن صرت حيواناً ضارياً .

قالت : لن أعود الى الجحيم، لأن الذئب والأفعوان اللذين تدَّعيهما صارا عندي ملاكيَّ رحمة لي . لقد أخذت من محفظة خالي وهو نائم هذه الورقة بمائة جنيه لكي

أوفي بها بعض ما لك علينا من الفضل .

فصحت بها : ويحك: أمال خالك تسرقين؟

فقالت كلا . بل هذا بعض مالك، فخذه واجعلني أنا بعض مالك الآخر .

فقلت : عني يا فتاة . ردي الورقة لخالك . عودي حالاً . والجئي الى دير اذا شئت الهرب من جهنم .

ونهضت من سريري وقذفت بها وبورقتها معها من الباب .

وما هي إلاّ بعض الساعة حتى دخلت عليّ عبلة أم سعاد وارتمت عند قدميّ ناحبة

فقلت : لماذا جئتني يا امرأة ؟

قالت : جئت لكي تلطمني بنعلك لطمات متوالية الى أن تقضي عليّ . فقد كنتُ من أسباب آلامك .

قلت : أتريدين مني أن أسامح نسيماً ابنك، وان أتوسل الى القضاء ان يعفو عنه فقد سامحته حين أساء . وأما القضاء فلا يقبل شفاعة .

فقالت وهي لا تزال تجهش : إن ثقتي العظمى بطيبة قلبك أرسلتني اليك لكي أرجو منك ان تتدارك سقوط سعاد في يد القضاء برد ورقة المماية جنيه التي أخذتها من محفظة خالها وقدمتها لك ، وهي كانت تظن أن خالها يتسامح ويغضّ النظر عنها فاذا هو يهددها باستدعاء الشرطي . فبربك تكرم بالورقة وخذ بدلها سعاد خادمة لك .

فقلت : لقد رفضت سعاد وورقتها وطردتها من منزلي الذي أصبح مربض وحش ضارٍ . فعودي يا سيدتي مطمئنة على مال أخيك وعرض بنتك . إني مريض الآن وربما صار مصيري غداً الى المستشفى وبعده الى قضاء الله .

ومضت المرأة آسفةً شاكرة داعية .

الفصل الثامن

الملاك الحارس

انتصف الليل وأنا أتقلّب على وثير الفراش ، بل على أشواك الغم . وقد أطبقت على صدري أطواد الهم من الجانبين الى أن صدتها سنةُ الكرى فنمت غراراً . ولا أدري متى صحوت ، فيما أنا أردد بيتاً من الشعر إعجاباً به نظمته في حلمي ، فرمت ان أكتبه لئلاّ أنساه .

الى يمين سريري مكتب صغير عليه ورق وأقلام . فتلمست الورق وقلم الرصاص وجرت أصابعي بالقلم على الورق من غير أن أرى شيئاً . وكتبت بيت الشعر في الظلام معتمداً على ارشاد اليد . وعدت استلقي على الفراش . ورغبت أن أكرّر بيت الشعر فاذا بي قد نسيته . عجباً . كيف أنساهُ ؟ إذاً فعلت حسناً إذ كتبته ، وإلاّ ضاع في عالم الخيال الفسيح فكأني ما نظمته . لعلي لم أكتب بل توهمت أني كتبت . فمددت يدي الى الزر الكهربائي المتصل بالسرير وضغطته ، فضاء المصباح . وما أغرب ما قرأت فيما كتبت .

« ألا ليت الشباب يعود يوماً
لأخبره بما فعل المشيب »

فضحكت على نفسي وقهقهت حتى كدت أظن ان في جيرتي من سمعني فاستجنني .

لعلّ عفريت الوهم ضحك على ذقني في غفوة قصيرة ، إذ اختلس من عالم الشعر بيتاً قديماً مشهوراً شائعاً ، ودسّهُ في مخيلتي ، وأوهمني أنه من بنات أفكاري . تبّاً له من مداعب سمج .

لله من اضغاث الأحلام ما أثقلها في قلاقل المنام .

ثم ضغطت الزر الكهربائي لكي أطفىء المصباح . ولكن الضوء لم يخبُ بتاتاً بل تضاءل حتى صار كأنه نور جمر في وطيس . وأجلت نظري في الغرفة لكي أتبيّن مصدر الضوء الضعيف الذي بقي بعد اطفاء النور الكهربائي . فبدا لي على الحائط أمامي ظل جسم انساني مطموس . فجزعت . ولكن أين الجسم المُظلُّ .

تلفت هنا وهناك فلم أر شيئاً . ثم عاد نظري الى الظل فاذا به طيف يتّضح رويداً حتى صار مجسماً . فاقشعرّ بدني ووجف قلبي . ماذا عسى أن يكون هذا ؟

ثم تقدم هذا الطيف حتى توسّط الحجرة وظهر على كتفه جناحان وتراءى لي روحاً ملائكيّاً متجسماً ، فهدأ روعي قليلاً إذ شعرت أنه روح خير . وبقيت صامتاً أنظر فيه وأتبيّن خلقته الجميلة الى أن قال :

هل أنست لي ؟

قلت : من تكون ؟

قال : أنا ملاكك الحارس لك . ألا تعلم أن لكل انسان ملاكاً يحرسهُ ؟ فان كان الانسان صالحاً كان ملاكه ملاك خير ، وإلاّ

فلاك شر .

فقلت متنهداً : وهل تراني صالحاً أستحق الخير وقد تراكمت عليَّ الغموم الجهنمية ، وأوشكت أن أنتحر ؟

— لماذا تنتحر ؟

— ألا ينتحر من خاب في مطامح الحياة ، وضلَّ في مسالكها ؟ لعلَّ الله ناقم عليَّ . أكاد أندفع الى منيتي .

قال : إذن لماذا كنت تردد في أيام الأمس « ليت الشباب يعود » ؟ كأنك تريد استئناف الحياة ثانية . فقد رقَّ الباري الرؤوف لك ، فأوفدني اليك . فهل تريد استئناف الحياة ثانية حقيقة ؟

قلت : حمداً لربي . نعم كنت أتمنى استئناف الحياة من جديد ، لكي أصلح أغلاطي الماضية التي ساقتني الى الثبور الذي أنا فيه الآن ، عسى أن أعيش عيشة أخرى راضية سعيدة . ولكنني يئست من هناءة هذا العالم لأني أراه مفعماً بالشرور والمحن ، وقد أصبحت حياتي كلها جحيماً فيه فصرت أود هجرانه .

قال : الجحيم على الأرض ليس أبدياً فاما أنك تهلك فيه محترقاً ، أو أن تتمحص فيه فتخرج منه طاهراً نقياً .

قلت : أجل . اني هالك لا محالة . أمسي مسأبي الأخير وأنا في حالة افلاس مجرد لي من كل متاع إلا الشرف . فقد قال القاضي الذي نظر في قضية افلاسي انه لم يرَ في تاريخ القضاء تفليسة شريفة كتفليستي . على أن هذا الشرف الذي يكسوني لا يستر عاري عن عيون الناس . غداً يباع متجري بالمزاد العمومي ولا أرى مخبأً لي من غارة هذا المزاد آمن من مخبإ الانتحار

قال : إنك في الطرف الأقصى من الشباب ولم تتخط الى الكهولة بعد . وما زلت في عنفوان الجسم السليم وصحة العقل الناضج أمامك نصف العمر — أطاله الله لك — فتستطيع أن تظفر بمستقبل سعيد مجيد . ولا بد أن يكافئك الله على فضائلك .

قلت : أرى المستقبل كالسراب يمشي سراعاً عني لا إليَّ . فلا أظنني أستطيع لحاقه والظفر به .

قال : لا تقنط من رحمة الله يا عزيزي ما دمت رجلاً صالحاً .

قلت : إن صلاحي هذا الذي تنوه به يا سيدي هو الذي اجتذب محنتي إليَّ كما يجتذب العسل الذباب الخبيث . والا فلعله صلاح أنت وأنا مخدوعان به ، أو انه ليس العلاج اللازم لهذا العالم . والأرجح أن لهذا العالم صلاحاً غير الصلاح الذي أرضعتنيه أمي وغير الذي طبعه أبي في نفسي بقدوته ، فليتني أعود غلاماً فأجدد سيرتي بالنمط الأصلح لهذا العالم — ولكن ...

« ليت وهل تنفع شيئاً ليت
ليت شباباً بوع[1] فاشتريت

(١) كذا ورد عن الشاعر والصواب « بيع »

قال : ان « ليتك » لنافعة يا عزيزي . فلا مستحيل عند الله القادر الذي يستطيع أن يجعل الماضي مستقبلاً ، قم أنت الآن فتى يافع . جدد حياتك واصلح أغلاطك وعش عيشةً راضية جزاء صلاحك .

فاضطربت ووثبت في الحال منذعراً ونظرت في المرآة ودهشت إذ رأيت طيفي فيها طيف فتى ، لا طيف رجل على باب الكهولة كما عهدتُني . لا شاربان ، ولا عارضان ، ولا بدن ضخم ، ولا شعرة بيضاء في رأسي ولا خشونة في إهابي ، بل رأيت طيف فتىً لم يخضرّ عارضاه بعد ، ولا كثف شارباه . أسيل الخدين ، وضّاء المقلتين ، ساطع المحيا ، مُشرق الثغر ، نحيف القامة لطيف الروح . ارتددت جازعاً .

قال : أليس هذا ما سألته ؟

فقلت : في لأي متردداً : — بلى

قال : إن الله سبحانه وتعالى استجاب سؤلك ، فهل ندمت ؟

قلت : ولا أزال مبهوتاً : كلاّ . . . ولكن ...

قال : ماذا ؟

قلت بعد صمت دقيقة : هل أجد أبي وأمي عادا الى قيد الحياة ، كما كانا معي في حداثتي ؟

قال : أنت طلبت الشباب لنفسك ، لا عودة أبويك من عالم الأبدية اليك . هل تبتغي أن يعود كل ذلك الزمن الغابر بأشيائه وناسه وأحداثه كما كان حين كنت يافعاً ؟ أو هل تريد أن ترجع خاتمة القرن التاسع عشر بسنيها ولياليها وشموسها وأقمارها ووقائعها ؟ أم تريد ان يجعل القادر على كل شيء كل ماضي الكون العظيم مستقبلاً لأجل خاطرك ؟ أم هل تريد أن يرجع الله عقرب ساعة الكون الى الوراء ربع قرن ؟ أو أن يمحو الله صفحة من صفحات سفر الأدهار ، أو أن يطويها لكيلا تنشر بتاتاً ؟ أو أن ينزع تلك الصفحة منه لأجل « ليتك » ؟ أين تريد أن يلقي تلك الصفحة ؟ أفي جيب الفضاء السحيق العميق ؟ أم في رحاب العدم اللامتناهي ، أم تريد أن يخلط « ورق » الكون في مندمج « الزمكان » أي (الزمان المكان) لأجل سواد عينيك ونعومة خديك

فقلت مقاطعاً ضارعاً : مهلاً يا سيدي حلماً يا ملاكي الحارس . لا أريد غير ما يريد الله . فلتكن مشيئته تعالى . وإنما أراني أستقبل الصباح ، ولست أنا ذلك الرجل الذي يعرفه بعض الناس ، بل أنا ولدٌ مجهول . ولم يرني أحد بعد ، فلا يعرفني أحد حتى ولا من كان يعرفني . فكأني جئت من عالم الغيب . كيف أخرج من مخدعي وكسائي أصبح يسعني مرتين ، أو يسع شخصين مثلي .

قال : متى لبسته تراه قد تقلص مثلك لكي يسعك مرة واحدة .

طغت حيرتي على ذهني . وبعد هنيهة قلت : — اني أراني كالطفل غريب في

العالم ، لا أدري كيف أتدبّر . ان العبد المعتوق من سيده أصلح للحياة مني .

قال : لماذا ؟ معك عمر ١٧ سنة بجميع مؤهلاتها التي كانت لك في ذلك العمر وأكثر منها . ومعك فوق ذلك اختبار ربع قرن ، واذا شئت فمعك معونة الله . أما كفاك كل ذلك عدة للجهاد في مضمار الحياة ؟ من في سنك له مثل مالك ، هل تنقصك شجاعة ؟ أعطيكها ، ابتدىء في الحياة كفتى صحيح الجسم والعقل والضمير ، وحاذر أن تحيد عن الصراط المستقيم . وحاذر أن تخدَع كما خدِعت . تنبهك لمكايد الناس لا ينقص فضيلتك . احذر أن تدع أحداً يعرف لك ماضياً غير ماضي الصبوة ، وحياة قبل حياتك الجديدة وإلاّ فتزول عنك هذه النعمة . اطلبني عند الضرورة القصوى تجدني . قل في ضميرك : « ملاكي كالائيل ، إني في حاجةٍ الى نصيحة منك » . فألبيك . سلام الله عليك .

قلت : مهلاً لي سؤال خطير الشأن . كيف أستطيع أن أتحايد شرور الأشرار وأنا دائماً أفرض أن جميع الناس أخيار قبل أن أختبرهم .

قال : بل يجب أن تفرض أن الناس كلهم أشرار ، وعليك أن تختبرهم لكي تكتشف خيارهم . لا تعاملهم كأشرار ، وإلاّ أسأت إلى أفاضلهم . عاملهم كلهم كأفاضل وحاذر منهم كلهم كأشرار . لا تستسلم قبل أن تتحقق وتتأكد أن لا احتيال عليك . كن مستقيماً يقظاً . ولكن طيب القلب بلا سذاجة . وإلاّ طمع الأشرار في استغلال سذاجتك .

قلت : سمعاً يا سيدي الملاك ان ما اكتشفته مما اختبرته في هذا العالم هو أن لا سبيل الى النجاح والسعادة فيه إلاّ بالحيلة والخداع والنفاق لاختلاس حقوق الغير . وأراني لا أستطيع أن أصحح أغلاطي الماضية إلا بانتهاج هذا النهج ، وإلاّ فسأعود الى ارتكابها ثانية . لا أرى الفائزين في الحياة إلاّ أشراراً . ولا أرى الأفاضل إلاّ مخفقين . فدعني أخرج من هذا العالم لأني لا أريد أن أعيش فيه خائباً .

قال : لك ما تشاء . فاخرج منه إن كنت لا تريده شاباً جديداً . والسلام عليك

ولم يمهلني ملاكي لسؤال آخر بل تلاشى ظله رويداً . وفي دقيقة امّحى تماماً . وساد الظلام في مخدعي .

* * *

تراجعت حتى اصطدمت بالسرير فاستلقيت عليه ذاهلاً مخبولاً . أحلماً كان هذا أم حقيقة واقعية . أطيف هذا في مخيلتي يهزأ بي : هذا حادث خارق للطبيعة فلا يمكن أن يكون حقيقة . ماهو إلا وهم ، هو حلم

ألم أزل أنا في حلم أم في يقظة الآن . فماذا طرأ على عقلي حتى خُيِّل لي هذا الوهم ؟

ضغطت زر الكهرباء . ضاء المصباح . فإذا بي أرى نفسي غير ما كنت أعهد .

لمست خدّيّ وسائر وجهي، فإذا هو أملس ناعم لا عذار فيه ولا عارض

وجفت . خفت . خفق قلبي بين ضلوعي، وتهيّبت أن أقف تجاه المرآة مرّة ثانية وأخيراً ؟ الى متى الخوف والتردد ؟

تشجعت ونزلت عن السرير وتقدمت متردّداً الى المرآة . جزعت إذ رأيتني غلاماً كما أراني ذلك الشبح نفسي . أرى بعيني رأسي حقيقة لا وهماً . أحقيق أن ذلك الملاك فعل بي كما قال ؟ ويحي ! أيمكن هذا ؟ اختلط الأمر في عقلي ؟ فحصت محتويات الغرفة فاذا هي كما أعهدها لم يتغير فيها شيء إلاّ أنا .

وكلما حدّقت في خيالي في المرآة تذكرت حوادث صباي التي كدت أنساها على مرور الزمن . تذكرتها حينئذٍ كأني مازلت غلاماً . وكأني أنا الآن في ذلك الحين . إذاً لم يمزح الطيف ... الملاك .

ولكني لا أزال أذكر أمسي وأمس أمسي ومتجري وقضية إفلاسي « وانتظار الدلالة » على بضاعتي غداً، وأصحابي ومعارفي وعلائقي معهم . فهل أصبحت شخصين ؟ يوسف العنابي الكهل ويوسف العنابي الغلام ؟ ضربت الحيرة في رأسي . صهرت دماغي . مزجت نخامي بدمي . أدغمت صباي بكهولتي . يستحيل أن أكون اثنين . أنا واحد . ولكنني كنت أمس رجلاً على باب الكهولة . وفي هذا الصباح أنا غلام مراهق .

عجباً ! أينمو الانسان الى تحت ؟ أيتقدم إلى الوراء . أيرجع المستقبل الى الماضي، أم يأتي الماضي بعد المستقبل ؟

أكاد أجن . رباه ! أنقذني من هذه الحيرة .

***

تقدمت الى الشباك . فتحته . نظرت في الفضاء . فاذا الفجر يشق حلك الأفق . ويلاه . ماذا أفعل ؟ كيف أخرج الى العالم وأنا غلام صغير والناس يعرفونني رجلاً كبيراً . الصبح يدنو . يجب أن أفكر فيماذا أفعل . فتحت خزانتي . أخذت محفظتي . فتحتها فاذا فيها ورق العملة الذي كنت أعهده فيها . إذن فأخرج قبل أن يظهر أحد في سلم البناية . ومتى صرت في الشارع فلا أحد يشتبه بي، لأني أكون كأي واحد من الغلمان الذين في سني . ثم أمضي . ثم يفتقدون يوسف العنابي فلا يجدونه . يبحثون عنه فلا يعثرون عليه بتاتاً . يزعمون انه انتحر بسبب افلاسه . طرح نفسه في النيل أو هام في الصحراء .

وضعت في حقيبتي (شنطتي) ما أحتاج اليه . وخرجت قبل أن يتضح الصباح، قررت أن أبرح الى الأسكندرية حيث لا يعرفني أحد . فذهبت توّاً الى المحطة فركبت القطار الى الأسكندرية .

نزلت في فندق متوسط الحال . وفيما أنا أتلمظ الفطور جعلت أفكر فيماذا أفعل ؟

ليت الشباب عود

ذاتيتان في شخص واحد

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٥٠

الفصل التاسع

الحياة الجديدة

اختي في بلدتنا في لبنان ترملت منذ سنوات ولا ولد لها، وقلما كنت أكاتبها لأني كنت مطمئناً عليها إذ هي تعيش من ريع أرزاقنا هناك. فبعد تفكير طويل كتبت لها الخطاب التالي.

«أختي العزيزة مريم

«أكتب اليك بعد مقاطعتي لك مدة طويلة. لم أكن ناسياً اياك. وإنما مشاغلي المضنية كانت مسؤولة عن هذا الاهمال. وكنت مطمئناً عليك لأني واثق بأن ريع أملاكنا يكفيك أن تعيشي في بحبوحة من الخير. والآن وقد بلغ ابني جميل أول الشباب أرسله اليك لكي يقضي بعض الربيع عندك ثم يصطاف. وان شاء فيتم الحول عندك. وقد أكتب له أن يدخل كلية بيروت الاميركية. وإن سنحت الفرصة فأتبعه في أول الصيف.

«وقد تستغربين أني لم أكتب لك عنه قبل الآن. لأنه كان كل الوقت في حضانة جدته أم والدته لأن أمه لم تمكث معي سوى مدة الحمل. وقد أخذها الله الى رحمته في مدة نفاسها. واتذكر اني كتبت لك في ذلك [كذبت لم أكتب لها في هذا. فدعها تتوهم اني كتبت لها]

«وقد ماتت جدته بالأمس فرأيت أن أضمه تحت رعايتك. ولا ريب أنك تسرين به جداً. وتعطفين عليه كأنه ابن لك. وقد زودته بالمال اللازم

«أقبلك قبلات أخ مشتاق.

أخوك يوسف العنابي

بعثت بهذا الخطاب الذي كذبت فيه على أختي الى لبنان، وانا شاعر اني انفض عني أحمال الهموم وأثقال المسؤوليات، أخذت أحس أني فررت من ساحة حرب لا يفرغ الجهاد منها.

شعرت أن ذلك العجل الذهبي الذي صاغه هرون لبني اسرائيل لا يشبع شهوة ولا يروي غلة. ولكن ليس في هذا العالم موسى يحطمه.

إن الخير الذي بقي على سطح الكرة الأرضية بعد طوفان نوح يشبع عشرين ضعفاً من ملايين سكانها. ولكن ملايين الذهب وملايين نائبه الورق لا تشبع إنساناً واحداً.

لا يستطيع شخص واحد أن يستهلك من خير الأرض أكثر من حاجة إنسان. ولكن إنساناً واحداً يستطيع أن يبتلع كل أموال العالم

يمكن أي إنسان أن يستوفي حاجته من خيرات الأرض بلا قتال. ولكن انساناً

واحداً يبتغي أن يقاتل العالم كله لكي يجمع خيرات الأرض كلها في بطنه

وداعاً أيها القطر الذي تهافتت أمم العالم الجائعة إليه وهي تلتهم دمه ولما ينضب

* * *

وصلت الى بلدتنا بصفتي ابن يوسف العنابي أخ عمتي مريم، واستقبلتني عمتي أختي (بحنوّ كحنوّ الأم). وانقضت بضعة أيام، وأنا أتنفس الصعداء، وأنفث الغم الذي حُشك في صدري في حياتي السابقة. وما لبثت ان سمعت إشاعة وفاة أبي (أنا) يوسف العنابي منتحراً كما قدّرت. فقضيت مع عمتي أيام مناحة أليمة على المرحوم المغفور له والدي (نفسي).

بعد حين جاءت سلمى الزعفراني وابنتها الى البلدة بعد غياب طويل، عشرين سنة ونيّفاً. ولم يسعني إلا ان أسلّم عليها باسم جميل ابن يوسف العنابي. فعزتني بأبي (أي بي نفسي) وأظهرت عطفاً عظيماً عليّ

وما انقضى شهر وأنا أنعم بعطف سلمى باعتبار أني (ابن صديقها) ودورا ابنتها حتى ورد لها الخبر المفجع عن وفاة زوجها المستر ستنفورد، فتفجعتا عليه وبكتاه بكاءً مرًّا لله من القدر المجهول. لما كانت سلمى مقيدة بزواج كان يوسف العنابي حرا يتوله بها غراماً ويتدلّه. ولما انحل قيدها وصارت حرة تلاشى يوسف العنابي من الوجود.

وما لبثت سلمى أن تأهبت للرحيل الى أميركا لكي تضبط تركة زوجها التي تعد بمئات الملايين وترعى أشغاله. وحاولت أن تترك لي الفي جينه مساعدة لي على الدراسة لما علمت اني عازم على دخول الكلية. فأبيتها كل الاباءة. فقالت: ان أباك قبلك. فلست أقل شمماً وأنفة منه. وأما دورا فظهر عليها أسف لهذا الفراق بعد العشرة القصيرة التي تمازجت فيها أخلاقنا وميولنا وأمانينا.

عزمت أن أدرس الطب بغية أن أكون ذا مكانة سامية في نظر سلمى وابنتها دورا

أصبحت أنظر الى الماضي كأنه حلم عبر، وان الحقيقة في حياتي هي هذا الحاضر. حقاً انى صرت ارتاب في حياتي الماضية، ولا سيما لأن ذكرياتي فيها صارت تتراءى لي كالظلال الضعيفة أو كأنها كانت أضغاث أحلام.

بقيت متحيراً في شأن ذاتيتي. أرانى شخصيتين في جسم واحد وعقل واحد. صرت أخاف الخبل من اختلاط هاتين الشخصيتين.

وما كان فراق سلمى ودورا إلا ليحرك فيّ سجية الشعر ويثير في خاطري حاسة النظم. فكنت كلما لاح طيفها في مخيلتي أشبب بهما وأتغزّل بجمالهما، وأبث لواعج غرامي وأتلو شعري على رفاقي، فيدهشون لما فيه من رقة وطلاوة وحس بيان وسموّ معانٍ

وفيما كنت أدرس الطب قدّمني أحد رفاقي نعيم الزهيري لقريبه الأستاذ خليل رامح صاحب جريدة « المصري الحرّ » في قاهرة مصر، اذ كان هذا في بيروت حينئذٍ لشاغل له. وهذا امتدح أشعاري ومقالاتي التي نشرت في بعض الجرائد والمجلات، وجعل يزيّن لي صناعة القلم. ثم جعل يرغبني في التحرير في جريدته حتى استهواني أو سحرني بأسلوبه ومنطقه الى أن وافقته. ثم مضيت معه الى مصر لكي أكون موظفاً في تحرير جريدته وأترك دراسة الطب. فكانت أول غلطة غلطتها في حياتي الثانية وسببها ميلي للشعر والأدب

وما انقضت بضعة أشهر حتى ملأت مركزي الأدبي بل أطفقت عليه فوق جمامه. وفهمت من بعض القراء أن الجريدة ظهرت بعد انتظامي في سلك تحريرها بثوب قشيب وأخذت منزلة خاصّة في عالم الصحافة. وكانت بعض الجرائد والمجلات الصغيرة تتناقل بعض نبذاتي وأشعاري.

وبطبيعة الحال تعارفت وأكثر الزملاء من محرري الجرائد الأخرى. وكنا نتجمع في أحد المقاهي كل مساء حيث نتبادل الأحاديث والأسمار ونتطارح النكات والملح، ومع إني كنت أصغرهم سنّاً (كنت في الرابعة والعشرين في حياتي الثانية) صارت لي بينهم منزلة تفوق سني. وقد راق لي ذلك المعشر جدًّا. وما أسفت إلاّ على عدولي عن دراسة الطب.

وزينت لي تلك الأحوال الحافّة حولي أن أؤلف كتاباً في موضوع اجتماعي أخلاقي جعلت عنوانه: — « سكرات الحياة ويقظاتها ». وعرضته على بعض الكتبيين لكي يطبعه أحدهم وينشره فأعرضوا قائلين: ان سوق الكتب غير المدرسية كاسدة وألاّ يروج في سوقها إلاّ الروايات والهزليات. ورضي بعضهم أن يطبعه من غير أن يدفع ثمناً للتأليف. فأسفت كل الأسف على بوار العلم والأدب في الشرق العربي. فرغبت أن أطبعه على نفقتي لاعتقادي أنه سيروج اعتماداً على شهرتي. وكنت أظنها شهرة طبقت الخافقين، وهي شهرة خيالية لم تتجاوز المقهى الذي كنت اجتمع فيه مع بعض الزملاء.

لله من الغرور. خلق الانسان من تراب، فهل في التراب غرور، فنشأ معه في جبلته؟ وقاك الله داء الغرور.

واستنزف طبع الكتاب من المال على قلته ما لم تكن لي طاقة على دفعه كله، فبقيت مديوناً بقسم منه للمطبعة. وأودعت نسخاً منه في المكتبات لكي يباع « بالعمولة » فلم أستطع أن استوفي من المكتبات إلاّ المماطلة، لا الثمن ولا المثمن. فصرت أوفي الدين من ماهيتي. هكذا كان أجر القلم في سوق الأدب حينئذ. فمنذ ذلك الحين شرعت تقتي بعجنى الأدب

تضعف ولا سيما لأن الجرائد لم تبلغ بعد مكانة الجرائد العالمية .

مضى العامان وصارت جريدتنا يومية بعد أن كانت تصدر مرتين في الأسبوع فتضاعف العمل، وبالتالي تضاعف المجهود . ولكن الأستاذ خليل رامح صاحب الجريدة لم يضاعف الأجر حتى ولا زاده أية زيادة . فبقيت ساكتاً عنه اعتماداً على ضميره . ولكن يظهر أن الضمائر لا تتحرك اذا لم يحركها محرك . وكنت أخجل أن ألمح الى هذا الموضوع .

وأخيراً تقدمت الى الأستاذ خليل رامح بكل رقة واستعطاف ، والتمست منه زيادة ماهية، فأبى أن يزيد بحجة أن اصدار الجريدة ضعفين كلفه من مصاريفها ضعفين

عدت في مثل يأس وندمت لأني عدلت عن دراسة الطب وضيعت بضع سنين من عمري الثاني في التحرير الماحل . آه لو درست الطب لكنت الآن طبيباً حرًّا وربما نلت توفيقاً كبيراً .

ورد اسم الراوي في هذه الرواية مرة يوسف النعماني وهو ويوسف العنابي شخص واحدٌ — فاقتضى التنبيه

الفصل العاشر

خيبة ويا لها . . .

وكان من حسن حظي أن المنزل الذي كنت أسكن فيه كان ملك ثريّ كبير يدعى خليل الرحماني ، وهو يختلف عن سائر الأثرياء بثقافة عالية ، وخصال شريفة ليست إلا في القليل منهم . وما اتصلت به صلة الساكن مع المالك حتى امتدت الصلة بيننا الى صلة الصديق بالصديق . فكنا نقضي بعض أوقات الفراغ معاً في منزله ، أو في متنزّه ، أو في مقهى معتبر : وما لبثت الصداقة ان استحكمت بيننا وأصبح كأنه مستشاري الذي أعتمد عليه لما كنت أرى فيه من أصالة الرأي والإخلاص .

في ذات مساء دعاني السيد خليل للسهرة عنده ، وابتدأ الحديث معي بالسؤال : كيف أنت وجريدة المصري الحر .

قلت : يلوح لي أني معرّض لخطر جسيم بسببها . فقد ورد لي خطاب اليوم بلا توقيع ينذرني به كاتبه بالقتل اذا كتبت شيئاً ضد اليهود . فاستغربت أن يوجه لي هذا الخطاب ولا يوجّه الى صاحب الجريدة لأنه المسؤول الوحيد . فهو يكتب وهو ينشر كل أسبوع مقالاً ضافياً عن احتيالات اليهود المالية كالبورصة والتجارة بالسندات بالنسيئة والتقسيط والربى والتأمين و « النصيب » الى غير ذلك فعرضت هذا الخطاب على الأستاذ خليل رامح صاحب الجريدة . فقال : لا تهتم به بتاتاً . ولم يشأ أن أقدمه للنيابة . ولا أدري لماذا هذه الحملة التي يحملها على اليهود .

قال الرحماني : أنا أدري . فهو يبتغي أن يسترضيه اليهود الماليون بمبلغ كبير من المال أو باشتراكات كثيرة بالجريدة وباعلانات كبيرة بدل سكوت .

قلت : ما ذنبي اذا كان خليل رامح صاحب الجريدة وهو يكتب .

قال : ذنبك أنك تكتب مقالات جميلة في الجريدة تجعل القرّاء يتهافتون إليها . وباتساع انتشارها تقوي دعايتها . فقيمة ما يكتبه الأستاذ خليل رامح كدعاية ضد اليهود أو دعاية لهم تتوقف على انتشار الجريدة الذي قلت العامل الأول والأفعل فيه ، لذلك أقول لك يجب أن تكون لك حصة فيما يتقاضاه خليل من اليهود ولك أن تطالب بها

فضحكت وقلت : لو كان الأستاذ خليل يرى أن لي حقاً بمقاسمته مكافأة اليهود لأجاب رجائي يوم توسلت إليه أن يزيدني أجرة لقاء زيادة عملي .

قال : سمعاً يا عزيزي . ان لي اتصالاً ببعض اليهود الذين يتأثرون جداً مما تكتبه جريدة المصري الحرّ ضدهم . وهم يتآمرون

الآن مؤامرات شيطانية ضدها وضدك وضد رامح إذا لم يوافقهم هذا على أن يشتروها لكي يرضّوا قلمه وقلمك رضًا لا تقوم لهم بعد قائمة.

فاستغربت أن تحدث المؤامرة وأنا لا أدري فقلت: ترى كم يدفعون ثمن الجريدة

قال: عرضوا أربعة آلاف جنيه وخليل رامح طلب ستة آلاف. ولسوف يدفعونها صاغرين.

قلت: وما رأيك؟ هل يحسبون قلمي من ضمن الصفقة

قال: كلاّ بل هم يقصدون أن يكسروه أولاً. فالثمن الذي سيقبضه خليل رامح هو ثمن جميع أقلام الجريدة، فعليك ان تطالب خليلاً بحصتك قبل أن يعقد البيع. قم اذهب إليه الآن.

* * *

بعد تردّد طويل تجرأت وقصدت الى خليل في منزله وخاطبته في الأمر. فما أنكر أن اليهود يساومونه. وقال إنه لا يعقد البيع إلاّ إذا تعهدوا أن يدفعوا لي مكافأة حسنة عن مدّة خدمتي في الجريدة، أو أن يبقوني في وظيفتي بماهية أكثر من ماهيتي

بيعت الجريدة واشتراها اليهود. وقبض خليل رامح ستة آلاف جنيه ثمناً لها. وبقيت أحرر في الجريدة، وقد أضافوا إليها ثلاثة محررين رئيسهم يهودي. وما لبثت أن شعرت إني مقيد اليدين لا حرية لي. وفي آخر الشهر أعطيتُ راتبي مع خطاب إقالة. فسألت عن المكافأة فقيل لي: طالب بها خليل رامح الذي خدمته.

وذهبت الى الأستاذ خليل أشكو له. فاستشاط وقال: يدفعون المكافأة رغم أنوفهم. اكتب لهم خطاب تهديد بقضية

بعد أخذ ورد وإحالة بين البائع والشارين واستشارة محام ضاعت المكافأة، وما كان خليل رامح أكرم خلقاً من اليهود. والمحامي قطع أملي لأنه ليس معي عقد اتفاق ضد واحد من الطرفين.

عدت بخفي حنين. حبطت آمالي. خامرني اليأس، عاتبت خليل رامح عتاباً مرًّا لأنه أغراني حتى جعلني أترك كلية الطب، وأضاع عليّ مستقبلي كله. فتنصل مني بخشونة وبلؤم، ياله من أنانيّ شرير.

* * *

في إبان هذا القنوط قابلني صديقي الرحماني فرويت له ما حدث بيني وبين خليل رامح وأصحاب الجريدة الاجداء اليهود.

فقال: ليس خليل رامح رجلاً شريفاً يستدعيك من كلية الطب، ثم يبخسك حقك. هذا عمل رجل أناني لئيم.

قلت: إن هذا الرجل كافر لا دين له. ولا يخاف الله.

قال: أي الله تعني؟

قلت: الله؟ وهل للعباد غير الله واحد؟

قال نعم: هناك الله ذو ثلاثة أقانيم. والله

آخر واحد لا شريك له . والله ثالث كان رب الجنود يحارب آلهة أخرى. وهناك آلهة أخر للمجوس والهنود والصينيين وغيرهم. فأيهم هو الله خليل رامح ؟

قلت : أليست هذه الآلهة جميعاً إلهاً واحداً هو الله رب العالمين .

قال : نعم . لو جرد الناس آلهتهم من الخرافات التليدة في عقائدهم لظهرت لهم إلهاً واحداً . ولكن هذه الخرافات هي التي فرّقت الأديان . فأي دين تعني ؟

قلت : أليست كل الأديان تأمر بالخير وتنهي عن المنكر ؟ هذا الرجل لا يفعل خيراً ، بل يفعل منكراً ، إذاً فلا دين له

قال : ألا تعرف أناساً ينتمون الى دين ثم يأتون المنكرات .

قلت : بلى . ولكن هؤلاء كاذبون في دعوى التديّن بأي دين . فهم بلا دين .

قال : أوَلا تعرف أحداً من الناس يجاهر بالإلحاد ثم يفعل خيراً ، وقلما يأتي منكراً ؟

ففكرت هنيهة وقلت : أي والله ، أعرف ملحدين لا يكتمون إلحادهم كأنهم لا يريدون أن يغشوا الناس، وسلوكهم سلوك أهل الصلاح .

قال : إذن فلا تعتمد في اعتقادك بفضائل الناس على ما يبدو لك من تديّنهم . ولا تسيء الظن ببعض الناس اعتماداً على ما تعلمه من كفرهم .

قلت متحمساً: تريد أن تقول ان الصلاح لا يأتي من الدين أو من التدين . فبأي حافز اذاً يأتيه الإنسان غير المتديّن .

قال المبادىء الأدبية غريزة في الانسان الاجتماعي ، وهذه الغريزة هي ما نسميه الضمير . فالانسان الاجتماعي يفهم الحق والصلاح سواء كان مؤمناً أو كافراً . ولكن شهواته تطمس الضمير والحق ، فيعمل بمقتضى شهواته لا بمقتضى ضميره

قلت : ماذا تعني بغريزة الانسان الاجتماعي .

قال : أعني أن هذا الحيوان الانساني لما صار انساناً وشرع يتحضّر صار اجتماعيًّا متكافلاً . أي صار كيانه متوقفاً على التعاون مع اخوانه وقومه . وهذا التعاون لا يحدث إلاّ إذا اتفق الإخوان أو القوم على أن يجعلوا الحق أساس تصرفهم . فيعدلون فيما بينهم . وينصفون بعضهم بعضاً ، ويصدقون ويكونون أمناء مستقيمين الى غير ذلك من مقتضيات الحق . وعلى تعادي الزمان أصبح هذا التفاهم بينهم ، والتعامل بمقتضاه غريزة في خلقهم الاجتماعي . وبالتالي صار شريعة لهم ، حتى اذا خالف أحدهم هذه الشريعة عاقبته الجماعة . اذا اطلعت على عادات قبائل المتوحشين والهمج وتقاليدهم تعلم ان الصدق في المعاملة بينهم عادة فيهم ، وهم لا يعرفون الهاً ولا يدينون بدين الا هذه الشريعة العرفية ، وحرصهم عليها هو الضمير الغريزي

والطبيعي فيهم . هذا هو مرادي بالغريزة الاجتماعية .

قلت : ألا ترى انه لا محيص من الدين لكي يقمع الشهوات ويحرك الضمائر ؟

قال : ليس الدين بقامع للشهوات ، ولا هو محرك للضمائر . وإنما تربية الناس منذ الصغر على تلك الشريعة الغريزية التي بسطتها لك هي التي تحيي الضمير ، وتعوّد المرء أن يقمع شهواته . فاذا كنت تربي الاحداث منذ الصغر على أن الصدق فضيلة تشرّف الانسان ، وان الكذب رذيلة تسفله ، وهي معرّة له ، يشبون على هذه المبادىء ، ويصعب عليهم جداً أن يحيدوا عنها بعد ذلك إلاّ بحكم البيئة الاجتماعية الفاسدة . فهم يفهمون بالبداهة أن الجماعة لا تعيش بسلام وطمأنينة إلاّ بالحرص على جميع الفضائل . التربية تغرس الفضيلة في الناس والفضيلة هي الدين الحقيقي

قلت : ولكن ألا ترى أن الدين خير وازع للانسان عن الشر ويحمله على عمل الخير ، لأنه يعده بالثواب ، ويتوعده بالعقاب ؟

قال : لو كان الأمر كما تقول لقلّت الشرور جداً الى حدّ الزوال . ولكنها لم تقل ، بل تتكاثر لسببين : أولاً لأن لمؤمنين من الناس يتداركون الدينونة بالتوبة المؤجلة في هذا العالم ، ويطمعون برحمة الله في الآخرة . وثانياً لأن غير المؤمنين لا يعتقدون بآخرة ولا بثواب وعقاب ، ولا يخافون إلاّ عقاب الحكومة . اذاً الوعد والوعيد لا يزعان الناس عن الشر ، ولا يحملانهم على عمل الخير . وإنما يفعلون خيراً ، ويتجنبون شراً ، بحكم التربية التي توقظ فيهم غريزة الصلاح الاجتماعية كما شرحت لك آنفاً . وهي شريعتهم الدينية وهي ضميرهم . وهي الثواب الذي يبتغونه ، والعقاب الذي يحشونه . إذا درست تصرفات الناس جيداً رأيت أن معظم الذين يرتكبون الشرور هم من صنف الذين يصومون طويلاً ويصلون كثيراً . وان معظم الذين يفعلون الخير ، هم من صنف الذين لا يصومون ، ولا يصلون . وربما كان أكثرهم غير مؤمنين . الفضيلة خلقٌ . والخلق ابن التربية . لك أن تجد شواهد كثيرة على هذا الكلام في الأفراد الذين تعرفهم ، وفي الأمم التي تعرف أموراً كثيرة عنها . فصاحبك رامح ليس فقط انه كافر بلا دين حتى غدر بك ، بل هو غير مربّى على الأخلاق الشريفة ، والفضائل السامية . الدين لم يضطره أن ينصفك . ولو كان ذا أخلاق سامية لأنصفك .

الفصل الحادي عشر

أوهم حلم أم حقيقة يقظة

بعد هذه الخيبة اعتكفت في حجرتي وجعلت أستعرض ماضيّ . فمرّ في مخيلتي حلمي القديم ، وتجلت لي حوادثه كأنها حقائق . كدت أرتاب فيما أنا فيه . هل أنا الآن في حقيقة ، أم في حلم . أحقيقة كان ذلك القديم ، أم كان حلماً ؟

قامت في وجداني حياتان لي . أيمكن أن يكون للإنسان حياتان ؟ . مستحيل لابدّ أن تكون إحداهما حقيقة ، والأخرى حلماً . خفت من دخل في عقلي . كيف أعرف الآن أني في حلم ، أو في يقظة ؟ وإني في وهم أو في حقيقة ؟ تزعزع وجداني خفت من عارض جنون

بعد بضعة أيام جاءني صديقي خليل الرحماني الى مقهى كنت أنفرد في زاوية فيه فقال : ما بالك مقاطعني يا عزيزي جميل .

فقلت متعملاً الابتسام : لست أبتغي مقاطعتك يا أخي ، وإنما أبتغي أن أتحاشى أن أريك مني وجه اليأس بعد الخيبة التي لحقتني من جرّاء انفصالي عن الجريدة .

فقهقه قائلاً : كل شيء فيك حميد ، إلاّ هذا اليأس الذي تتطوّح فيه . وهل رجل مستوفٍ جميع المؤهلات ييأس ؟ هلمّ يا هذا الى العالم بقلب شديد ، وأمل وطيد ، فكيفما تقلب الدهر على رجل مثلك يمنحه حظاً سعيداً من الحياة .

فتشجعت وقلت ساخطاً : تقول حظاً سعيداً وأنت لا تعلم ماذا يضمر مفرّق الحظوظ . إن توزيع الحظوظ يا عزيزي سرّ لا يعلمه إلاّ موزّعها .

واسترسلت في الموضوع بطلاقة وهو يسمع ساكتاً باسماً : أتعتقد أن الأرزاق توزع حسب الاستحقاق ؟ أي استحقاق ؟ الإجتهاد ؟ المؤهلات ؟ الذكاء ؟ الفضل ؟ الفضيلة الخ — أنت تعرف « نعيم البجم » يملك نصف شارع من الأبنية وريعه منه ثروة عظيمة . وهو يكاد يكون أميّاً ، ولا يعمل خيراً ، وإنما يبطر ويبذخ ويبدّد . وإذا اختبرته تجده دون المعدل الوسط في الذكاء ؟ وعنده كاتب للحسابات محصل للأجور مثقف ، يبزه ذكاءً وأخلاقاً . فهل ترى تقسيم الرزق عليهما كان عدلاً . وتعرف دافيد بروخ « المقطع الموصل » ، وقد أثرى من تعويضات شركات التأمين لمحروقات متاجره ، ومن تفاليسه المصطنعة ، ومن مراباته الفاحشة ونحو ذلك . وقد تضحّى على مذبح مطامعه الجهنمية فلان وفلان ممن تعرفهم . فهل هذه عدالة في تقسيم الأرزاق ؟

وقس على هذا وذاك ألوفاً لا ترى حظوظهم معادلة لاستحقاقاتهم . فمن ذا الذي يرشدنا الى سر تقسيم الحظوظ وقاعدته المثلى لكي نعلم ماذا يجب أن نفعل لننال حظاً سعيداً .

وأنت تعلم أني عملت صالحاً وفعلتُ

خيراً ثم كوفئت شراً . ترى الجزاء في هذا العالم معكوساً . ترى أناساً يسلكون سلوكاً حسناً وهم في هم ونصب وشقاء وآخرين يسلكون سلوكاً شريراً ولكنهم موفقون محظوظون

لا لا يا عزيزي خليل: ليس في الأرض ولا فوق الأرض عدالة . لا ينفع العلم ولا الذكاء، ولا النبوغ ولا الفضيلة ، ولا طيب القلب ، ولا سمو الأخلاق — في الحصول على السعادة . وما أنت مخيَّراً بين ذكاء مع فقر، أو جهل مع غنى . قسم لك الذكاء فقيراً كما يجده آخر غنياً . وقسم لك الغنى فخذه جاهلاً أو عالماً . أجل أن تقسيم الحظوظ سرٌّ لا يدركه إلا الرزاق علام الغيوب . يمنح من يشاء ويمنع من يشاء ولا ندري ماذا يمنح وماذا يمنع . هو سرُّ القضاء والقدر .

عفواً يا عزيزي خليل . أنت مستثنى من هذه القاعدة، قاعدة العدل، والخيار بين الغنى والذكاء والعلم والفقر . أنت صنو سليمان الحكيم . لقد ميزك الرزاق بأن أعطاك الحكمة والمال والاخلاق السامية . فأنت أسعد خلق الله وأمثالك نادرون . أهنئك .

فضحك وقال : إن تلك الألوف من الأموال التي يبددها المرزوقون المسرفون السفهاء يا أستاذ ليست بدل ذكاء وعلم، إنما هي ثمن عدل بيع بخساً ، أو ثمن ظلم اشتري غالياً . فما كانت الألوف في زمن من الأزمان أو مكان من الأمكنة لتنال بالبله أو بالغباوة أو بالجهل أو بالخساسة أو بالسفه أو بالكسل المطلق . وإنما كان ولا يزال كل جنيه ينال بتعب في عمل معادل له . ولكن لم يكن دائماً أن يناله من تعبَ فيه . فقد يتعب فيه زيد فيناله عمرو . فالجنيه حصل جزاء عمل مساوٍ له . ولا عبرة في من يملكه . أهو الذي تعب في تحصيله أو الذي اغتصبه منه . فأولئك الكسالى الأخساء، البله الأشرار، الذين يملكون الألوف والملايين لا يملكونها بدل ذكاء مفقود فيهم، أو بدل علم لم يحصلوا عليه، أو بدل أخلاق يمنحونها حتى يحق لهم أن يحاسبونا ويقولوا هذا بذاك . وإنما نالوها بفضل خطأ فظيع في نظام المجتمع بسبب الفساد المغلغل فيه . نالوها متجمعة من حاصل أتعاب الذين تعبوا في تحصيلها . وأنت تعلم جيداً انه اذا كان المال جزاء عمل فلا يعقل أن الذي جمع الملايين تعب في حياته في العمل تعباً يساوي تلك الملايين ولا جزءاً زهيداً منها . وإنما نظام المجتمع الفاسد سمح لزيد من الناس أن يستغل تعب عمرو . فالذين يتذمرون من سوء حظوظهم يلقون المسؤولية في توزيع الأرزاق على الرزاق أو على القضاء والقدر . وفي الوقت نفسه يبررون فساد النظام الاجتماعي ويبرئون منظميه من لؤم قصدهم في التنظيم . فليس الرزاق ولا القدر مسؤولين عن هذا الغبن في توزيع الحظوظ والأرزاق ، بل الناس أنفسهم مسؤولون عنه لأنهم لا يزالون ضواري ينهش بعضهم بعضاً . وما كانت هذه

الأنظمة الاجتماعية الآ من أدوات هذا النهش، وأذكاهم أفسدهم خلقاً، وأبرعهم نهشاً

قلت : اذاً لا عدالة عند الرزّاق في توزيع الذكاء والأخلاق والحظوظ . ما ذنب المرء إذا ولد ناقصاً ذكاء وضعيفاً خلقاً وقليلاً حيلة . لا بدع إذن أن يتفاوت الناس تفاوتاً عظيماً في الغنى والفقر والسعادة والشقاء كما هم متفاوتون في الذكاء والبله ، وفي الأخلاق القويمة والفاسدة . فلا بدّ إذن أن يتفاوتوا في الحظوظ . وفي كسب الأرزاق ، وبالتالي تبقى المسؤولية على الرزّاق أو على القدر إذا شئت ، لأنه ليس في طوق المرء أن يولد ذكيًّا فاضلاً ، أو قاصراً أو شريراً .

فقال : اعلم يا صديقي أن الناس ولدوا متقاربين جدًّا في الذكاء ، ولا عبرة بالنادر . ولكن البيئة الاجتماعية جعلتهم متفاوتين في الذكاء والأخلاق هذا التفاوت العظيم الذي تراه فيهم . وما ولد شخص إلاّ ولد معه ذكاء كاف لأن يحصل من الرزق ما يكفيه أن يعيش سعيداً ، كما يعيش جميع سعداء الناس، اللهمّ لو كان نظام المجتمع قويماً عادلاً يخوله حق الانتفاع من ذكائه . وإنما هذا النظام الخبيث حرم الوضيع حق العلم والمعرفة، وحق الصحة والعافية، وحق القوة العقلية والبدنية، وحق الإيمان واليقين بالعدالة . ثم أذلّه وخبله وأظنّه مولوداً عبداً قاصراً حقيراً ، لا انساناً حرًّا، فحدث هذا التفاوت الذي تراه في الأرزاق والحظوظ . فليس إذن الرزّاق ولا القدر مسؤولين عن تقسيم العقول والذكاء بين الأنام . بل الناس أنفسهم مسؤولون عنه لسوء نظامهم . ولو اعتدل النظام وعدل لقلّ جدًّا التفاوت بين المواليد في ذكاء العقول لأن لهذا النظام الفاسد الأعوج تأثيراً عظيماً في السلالات . ألا تعرف أفراداً من السلالات البشرية المنحطة نبغوا حين أتيح لهم أن يُسرّبوا تربية الراقين في قمة المدنية ؟ كان هذا نظام العالم ولا يزال هكذا حتى عصرنا الحاضر . ولعلّ تطوّرات المجتمع تغيره أو تعدله أو تنقحه كما كانت تفعل في الماضي . هذا هو نظام العالم الآن ، فعليك أن تسير مع تياره بمقتضى ذكائك وفطنتك، ولا تستسلم لعقيدة أن الحظوظ مُنح من القدر وإلاّ سحقك هذا التيار .

إنك مثقف وذكي فلا تعدم مسترزقاً سخيًّا . ولقد عثرتُ على وظيفة لك هي خير ما تعمله . ان نديم السماك تاجر الأصواف والأجواخ « بالجملة » رجل طيب القلب جدًّا . وقد صار مسنًّا . وكان له شريك فانفصل عنه . وهو يحتاج الى مُعين له في متجره . فذكرتك ووصفتك له كما اعتقد فيك . فيود أن تشتغل معه في أول الأمر مستخدماً . فاذا رضي عن عملك بعد الاختبار فقد يشركك معه . والرجل خبير محنك تستفيد من خبرته كثيراً . وسيكون أجرك من أول يوم حسناً . سر على بركات الله

الفصل الثاني عشر

مكيدة جهنمية

لم تمض بضعة أشهر حتى كان السيد نديم السماك راضياً عني كل الرضى. كنت أضبط الحسابات والقيود واضحة، وكنت أحسن المراسلات بالعربية وبالانكليزية الى منشستر وغيرها. وكنت أحسن معالجة البيع والشراء، ومحاسنة «الزبائن»، وكان «الزبائن» يمتدحونني للسيد نديم وبعضهم يحسدونه عليّ. فتمسك بي ولم يقصر في مكافأتي.

وقرب الصيف فاقترح عليّ أن أذهب الى منشستر لعقد صفقات مع المصانع كما اعتاد هو أن يفعل. فسُررت جداً من هذا الاقتراح، وأكدت له أني سأقوم بالواجب خير قيام بإذن الله. وزوّدني بالتوصيات والمعلومات. وسافرت وقضيت الشغل كما ينتظر وتوفقت جداً.

وعدت من انكلترا بعد شهر ناجحاً. وكان السيد نديم راضياً كل الرضى عن رحلتي ونتائجها، وأصبح يعتمد عليّ بجميع أشغال المتجر. ولما كانت صحته وسنّه تنذرانه باضطراره الى التقاعد عن العمل، اقترح عليّ أن يشركني في تجارته برأسمال أربعة آلاف جنيه نصفها منه والنصف الآخر يضعه هو ويحسبه ديناً عليّ بفائظ قانوني على أمل إني أستهلكه تدريجياً من حصتي بالأرباح. فسرّني جداً هذا التدبير وجرينا عليه بانتظام.

وبعد عام من هذا التدبير توفي السيد نديم عن زوجة وصبيّ قاصر. فاتفقت معها على أن آخذ المحل كله على حسابي وان أوفيها المال في مدة أربع سنين. وكان المتجر، حسناً والنتائج مرضية جداً.

* * *

وفي ذات يوم جاءني تاجر أعرفه وقدّم لي فتاة باسم لندا حائك وقال: علمت أنك في حاجة الى كاتب قدير يقضي لك أشغالاً مختلفة. فجئتك بهذه الآنسة وهي خير من يقوم بعملك. هي فتاة متعلمة جيداً، العربية والافرنسية والانكليزية والخط المختزل والكتابة بالآلة الكاتبة. كانت تشتغل في مصرف (بنك) وتقوم بمهام جسام. ولكن المصرف لا يدفع الأجر مساوياً للعمل. جرّبها أسبوعاً، شهراً، أشهراً. وعيّن ماهيتها القدر الذي تشاء، ونحن واثقون بذمتك.

فنظرت في الفتاة نظرة هفا معها فؤادي.

جمال بارع في ذكاء يشع من ناظريها، نشاط بادٍ في حركاتها، سماحة في محياها، قوة في فراستها، وداعة في بسماتها، ذوق في اناقة هندامها. لا أظنها تتجاوز الثانية

والعشرين من العمر. لم أتردد في قبولها. علمت أنها يتيمة الأب، وليس لها إلاّ أم بلا اخوة

ما هو إلاّ أسبوع حتى برهنت الفتاة على أنها أكفأ مما قال عنها مقدّمها. ومشى العمل بانتظام، وحلت الفتاة عندي كما حللت أنا عند المرحوم نديم السماك، ونالت كل الرضى والعطف مني، والأجر المعادل لعملها وأزيد.

وما لبثت ان سحرتني هذه الفتاة ليس بذكائها وحسن عملها فقط، بل بوداعتها وطاعتها ورقتها ولطفها وأمانتها واخلاصها، الى أن انتهى هذا القرب بالحب. وهل يمكن أن ينتهي بغيره؟ والمكان والزمان يضماننا روحين. فلماذا لا يضماننا جسدين.

ولما شعرت أنها بما بدا بيننا من هوىً عذري، تدخلت بدهاء اللطف، وفرضت علينا الزواج فرض الأم للولدين. فما ترددنا به وعقدناه.

* * *

وعشتُ مع لندا زوجين متعاشقين متهنئين مشتركين في العمل متمتعين في الحياة السعيدة بصفاء تام بلا كدر.

وهذا الحب مع البعد في المكان والزمان بيني وبين سلمى ودورا أنسانيهما أو تناسيتهما. ولماذا أفكر بهما وبيني وبينهما أوقيانوس في المساحة، وأوقيانوس في الثراء، وأوقيانوس في الجاه، وغاب عن بصيرتي أن بيني وبينهما تجويف قلب فقط.

بعد حين شعرت بالوني والتعب والضعف لشدة الجهد في العمل. فاستدعت زوجتي الطبيب الذي تثق به ففحصني وقال: ليس فيك إلاّ ضعفٌ عمومي من جراء التعب. ولا علاج للتعب إلاّ الراحة. فأنصح لك أن تغير الجوّ في أوروبا مدة صيف، وإلاّ فيشتد هذا الضعف ويتحوّل الى سقم عصبي قد لا تبرأ منه.

فتمسكت زوجتي بنصيحة الطبيب هذه، وألحت عليّ أن أذهب الى أوروبا لأتنزّه وأنتهز الفرصة لزيارة المصانع وعقد طلبات معها. وتعهدت أنها تتكفل بإدارة المحل في غيابي كأني حاضرٌ فيه. ووثقت بكفالتها هذه لما رأيته من مقدرتها. فانصعت لإلحاحها.

وقبل أن أسافر طلبت مني توكيلاً عامًّا لكي تستطيع أن تصرّف الأشغال في غيابي بسهولة، ولا تجد عقبات وموانع في سبيلها. فاستصوبت طلبها هذا، ومن يكون أخلص للمرء من امرأته التي تبادله الحب والطاعة. فأمضيت لها توكيلاً اصطنعته عند محامٍ تعرفه جيداً. ثم سافرتُ على بركات الله مطمئنًا على عملي كل الاطمئنان.

* * *

قضيت في أوروبا ثلاثة أشهر أروّح فيها النفس، وأدرس المصانع والتجار. وزوجتي كانت تكتب لي من حين الى آخر ان كل شيء سائر على ما يرام.

ولما اكتفيت من السياحة عدت. فاذا رأيت

رأيت السماء أطبقت على الأرض، وجهنم نفضت سطح الأرض عنها، ونطحت السماء بروقيها . وأنا مسحوق بين الطبقتين، محترق بين الروقين، غريق في مصهور السموات والأرضين .

ماذا أكون غير ذلك وقد وجدتُ متجري تحت تهديد الإفلاس، والمحتالين عليّ حائمين حولي، يتوقعون القضاء على مرتزقي حتى لا تقوم بعد ذلك لي قائمة — من هم ؟

رأيت حولي شمعون الحائك وعصابته نفس الأشخاص الذين طردوني من جريدة المصري الحرّ وقد ملكوها. أعملوا معاولهم لهدم تجارتي وانتهابها .

ويلاه ! ما الذي جاء بهؤلاء إليّ يا لندا ؟ ما شأنهم ؟ من شمعون هذا ؟

قالت : هذا ابن عمي .

فذهلتُ ... هذا ابن عمك ؟؟؟ ويحك ! أيهودية أنتِ ؟ وكيف تكلمنا في الكنيسة المسيحية ؟

قالت بكل برودة : كان أبي غفر الله له يهوديًا . وأما أمي فمسيحية، وقد ربتني مسيحية .

— وبأي حقّ يبغي شمعون ابن عمك الحجز على تجارتي .

— بصفة كونه مدير الأشغال في شركة جريدة « المصري الحرّ » ؟

— شركة « المصري الحر » ؟

— نعم صارت شركة عظيمة لأنها أصبحت جريدة تجارية إعلانية بورصيّة . وارتفعت أسهمها فنصح لي ابن عمي شمعون أن أشتري أسهماً منها. فاشتريت قسماً كبيراً من الأسهم حتى يكون لنا الحق الأول في مجلس ادارتها وتتولى أنت تحريرها . وقد دفعتُ قسماً من ثمن الأسهم ...

فقلت على الفور ... ونزلت قيمة الأسهم وليس عندك ما يغطي ثمن أسهمك . فحجز شمعون على تجارتي . أليس الأمر هكذا ؟

— نعم مهما نزلت قيمة الأسهم فالجريدة أفضل من تجارتك لأن أرباحها ...

فصحت بها : تبًّا لك من خبيثة شيطانة . كيف تفعلين هذه الفعلة الشنعاء يا لئيمة والجريدة لا تساوي شروى نقير . لقد لعبوا هذه اللعبة وأنت مالئتهم لكي يغتصبوا مالي انتقاماً مني، وأنا لم أسيء إليهم بشيء فيما كتبه خليل رامح عنهم .

قالت : ألا يعجبك أنني رددت الجريدة لك وهي عائشة الآن على الاعلانات وعلى أخبار البورصة والتجارة والأسواق

— تبًّا لك . هل أنا فيلسوف بورصة يا شقية حتى تهيئي لي هذا المنصب . لقد ضحكوا عليكِ ولعبوا عليّ دوراً ابليسيًّا عن يد تغفلك ولؤمك يا غبية، أم أنت متواطئة معهم ؟ قولي لي . ما هي قرابتك للطبيب الذي نصح لي بالسفر الى أوروبا ؟

— هو ابن عم أبي

وماهي قرابة المحامي الذي كتب التوكيل لك

— هو أخو الطبيب

— ويحي ويحي. لقد حبكت المؤامرة حبكاً شيطانياً . ألا لعنة الله عليكم جميعاً من أبالسة .

وقابلت شمعون متهيجاً : ما هذه الفعلة الخبيثة يا هذا . تغابيوني ثم تكيدون لي كيد أهل الجحيم .

فقهقه الخبيث وقال : هذا من بعض أفضالك يا أستاذ .

لله منكم لؤماء . أما اقتنعتم أنه لم يكن لي حرف في تلك المقالات التي كانت بقلم خليل رامح ؟

— كان هو يفكر وأنت تحرر . أليس كذلك يا أستاذ ؟ عد الى تحرير الجريدة غداً .

— تخربون بيتي ثم تستعبدونني أيها الأشرار . خليل رامح قبض الستة آلاف وانصرف من أمام وجوهكم الى السودان وتركني لنقمتكم يا ملاعين .

— ستلتقي به نقمتنا هناك يا أستاذ

كنت أتكلم مستشيطاً وهو يتكلم مقهقهاً

***

وعدت الى لندا : زوجتي : هاتي ابسطي لي الحالة الآن، ماذا لي وماذا علي وما الصافي .

قالت تجارة الأصواف زالت وحل محلها اسهم شركة « المصري الحر » ألا يعجبك هذا التحويل

طار عقلي . كدت أجن : — ويحك يا شقية . لقد سألت عن أسهم الجريدة فقيل لي انها تساوي فوق الصفر قليلاً لقد هدمت حياتي هدماً . أين الأسهم هاتيها لكي أحرقها .

قالت بكل قحة : تحرقها ؟ ألك هي حتى تحرقها ؟

— لمن اذاً يا لصة ؟

— لي . هي باسمي

فما تمالكت أن لطمتها وصحت : أخرجي من أمام وجهي يا خبيثة . انك طالق مني . تكليل الكنيسة لنا باطل غير قانوني لأني خُدِعت بزواجك

— وهل تظن أني أريد البقاء زوجة لك بعدهذا السخط ؟ أنا أرفع قضية طلاق عليك وأطالبك بتعويض... وخرجت كما يخرج ابليس عند ذكر اسم الله تعالى .

وقمت أبحث في البيت عماذا باعت وماذا بقي . فلم أجد الا ضروريات السكنى . ولكني عثرت في الخزانة على محفظة فيها مائة جنيه . فاستغربت وأدركت انها حفظتها لكي تنقذها من التصفية . وظهر أنها نسيت أن تأخذها حين خرجت . ولا بدَّ أن تعود لكي تأخذها . إذن أنا في حاجة اليها أكثر منها . والله لن أدعها تدخل هذا البيت بتاتاً .

تركت تجارتي في يدي السلطة القانونية . يتناهبها الناهبون . لم تبقَ لي فلماذا أهتم بها ؟

الفصل الثالث عشر

بين النعيم والجحيم

اعتكفت في منزلي لأني شعرت بحمى شديدة أحمّى مرض هي، أم حمّى غضب وغيظ ؟ ما كنت أظن أن هذه المخلوقة التي انتشلتها من اليتم وأحببتها وأحسنت إليها ووثقت بها وسلمتها مالي كما سلمتها قلبي — ما كنت أظن أنها تخونني هذه الخيانة الشيطانية، وتتفق مع تلك العصابة الشريرة المنتقمة مني . لعلها كانت ألعوبة بين أيديهم ولا تدري .

ويلاه : ما أشر الانسان ، وما أمكره ما رأينا فكراً ثاقباً الاّ في الشر . ولا توسمنا عبقرية الاّ في الأذى والضرر، ما رأينا نابغة في الصلاح، وعبقريًّا في الفضيلة ، اللهمّ إلاّ نوابغ العلم . ولكن واسفاه ان نوابغ الشر يحولون فوائد العلم الى الأذى كالحرب ونحوها . فما أشر قلب هذا الانسان . يا لضياع هذا العقل العجيب بين أيدي الأخلاق الشريرة . يا لخيبة ذلك العقل العظيم القدير الذي زين الله به الانسان، وجعله دون قليل من الملائكة . ولكن الانسان كفر بنعمة الله ، وأنزل نفسه دون الأبالسة .

***

جاءني صديقي الرحماني لأني أبلغته أني مريض . ودهش لما بسطت له حالتي التي فوجئتُ بها بعد عودتي من أوروبا . وقال ليس بعيداً أن مسألة زواجك من لندا كانت مدبرة للوصول الى هذه النتيجة الشريرة .

فتنهدت وقلت : آه . أجل

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ

كمقام المسيح بين اليهود

آه ليتني أعود الى حياتي الأولى . فقد كانت أهون مصائب من حياتي الثانية . لقد أخطأت في هذا الاستبدال

فاستغرب صاحبي قولي هذا وقال : ماذا تقول ؟ ألك حياتان أولى وثانية ؟

فأمسكت نفسي وقلت : لا . لا . إني أهذي من شدة فعل الحمى . أرجو منك أن تسعى بنقلي الى المستشفى اذا رأيت أن حالتي المرضية سيئة .

استدعى الطبيب فقال هذا : انه ليس في الجسم ما ينذر بخطر مرض عضال . هي ثورة نفسية عصبية شديدة . ولسوف تخمد، وأرشدت صديقي الى المائة جنيه التي عندي في الخزانة لكي ينفق منها عليّ في المستشفى

***

ما ان خرج صديقي الرحماني حتى أدلهمت الحجرة في عيني، وظهر فيها شبح نوراني مجنح . فدهشت ثم قلت من هذا ؟

قال . هل نسيتني ؟ ملاكك كالائيل .

أما ذكرتني منذ برهة قصيرة ؟ سمعتك تتذمّر من حياتك الثانية ، وتتمنى حياتك الأولى . هل اكتفيت من الثانية ؟

— الثانية شرٌّ من الأولى يا ملاكي . ملأى من الصائب والشرور .

— بل قل انها ملأى من الأغلاط أيضاً . لقد تذمرتَ في حياتك الأولى من كثرة أغلاطك التي جرّت عليك مصائبك ، وكنت تزعم أن عذرك فيها جهلك ، وعدم اختبارك . وتمنيت عودة الشباب لكي تعيش حياة جديدة تصحح فيها أغلاطك ، لكيلا تقع في مصائبها . ولما كنت رجلاً طيب القلب صالح النفس أجبنا سؤلك . فقضيت العمر الجديد وأنت ترتكب مثل الأغلاط التي ارتكبتها في حياتك الأولى بأوسع مدى ، وأشد فعل ، وأسوإ حال . فماذا تريد بعد الآن ؟

هل تريد حياةً ثالثة تصلح فيها أغلاط الثانية ، ثم رابعة تصلح فيها أغلاط الثالثة ، وهكذا دواليك الى ما لا نهاية له ، كأنك تحتال على محدد الأعمار لكي تنال منه أعماراً تستغرق الأبد ؟ أما كفى أنك عشت عمرين ، واختبرت العالم اختبارين ؟ . أما اهتديت الى أسباب اخفاقك ، وعلل أغلاطك ؟ هل هي في العالم أم فيك ؟

قلت : تفضل اجلس على الكرسي وأجبني مرتاحاً . أليس عندكم عالم آخر غير هذا العالم ؟

جلس وقال : هذا عالم البشر لا يعيش فيه إلاّ البشر . أتريد أن يخلق الباري تعالى عالماً خاصّاً بك لا شرور فيه ولا آلام ولا أحزان ؟ إذن أنت لا تطلب ثواباً جزاء صبر ، وعناء جهاد . بل تريد أن تكون حجراً أصم لا يعاني ، ولا يثاب ، ولا يعمل صلاحاً ، ولا يجازى على صلاح . فهل تريد أن تتحوّل الى حجر ؟

فصحت : لا . لا . رحماك دعني في كياني أحس وأشعر .

— أتريد أن تكون نباتة ؟ فن النبات ما يحس

— لا . بربك دعني في كياني أحس وأفهم وأعقل .

— إذاً تريد أن تكون فيلسوفاً . إذاً أنت فيلسوف

— أريد أن أفهم هذا العالم فهماً تامّاً وأتدارك شروره

— إذاً فتريد أن تكون بعض إلـه لكي تفهم بعض أفكار البشر ، ونيات الناس ومكايدهم المضمرة . هذا الصنف من الخلائق خاصٌّ بعالم الأملاك ، فليس لك فيه نصيب ، أنت مخلوق في ملكوت الإنسان . وهذا الملكوت مخلوق بين عالمين ضدين يتنازعانه : عالم الملائك الأبرار ، وعالم الأبالسة الأشرار . ولذلك يجمع الأضداد ، ففيه الخير ، وفيه الشر ، وفيه المسرّة ، وفيه الألم ، وفيه الفرح ، وفيه الحزن .

قلت : أتمنى أن أكون في زاوية من هذا العالم البشري المختلط خيراً وشراً : في زاوية حيث يكثر الأخيار والأبرار، لكي أعيش بينهم مرتاحاً من مكايد الأشرار .

قال: إذن أنت تريد السماء لا الأرض فانتظر

قلت : كنت قديماً على أهبة أن أنتحر لكي أخلص من جحيم هذه الأرض فقطعت أنت علي الطريق إلى السماء اذ حلت دون انتحاري

قال : ليس الأجل في يدك حتى تقطعه أو تصله كما تشاء . بل هو في يد موزع الآجال . كان يجب أن تبقى في عالمك تجاهد فيه لكي تنال جزاء لك في الآخرة .

— لماذا لا يكون العالم خالياً من الشر؟

— إذا كان خالياً من الشر فيكون هو والفردوس سيّين . فلا لزوم لأرض ، ولا لسماء، ولا لجحيم ولا لنعيم

— لماذا لا يكون الأمر كذلك ؟

— إذا كان الأمر كذلك فتكون الحياة بلا غاية ، ولا لزوم لها ، ألأجل بضعة عقود من السنين غير تامة الهناءة يحيا الانسان ؟ ان حياة قصيرة كهذه لا تستحق أن يحياها الانسان

— لماذا لا يكون ثمّت نعيم بلا جحيم

— اذا كان نعيم بلا جحيم ، فلا يكون ثواب ، جزاء صلاح لأن النعيم ثواب ، ولا بدّ من عمل الصلاح للحصول على ثواب . وكيف تشعر بلذة النعيم اذا لم تذق مرارة الجحيم ولوهنيهة . وبضدها تتبين الأشياء، لا يشعر الأبرار بهناءة نعيمهم ، إذا لم يروا الأشرار يتعذبون في جحيمهم.

— ولا لزوم لصلاح ، ولا لثواب له ، ولا لشر ، ولا لعقاب له .

— إذا لم يكن صلاح ولا ثواب ، فلا تكون ثمت حياة حساسة عاقلة . وحينئذٍ نعود فنعرض عليك أن تكون جماداً لا يحس ولا يعقل .

— بل أود أن أكون إنساناً يحس ويعقل، وأن تقف أنت الى جانبي حارساً لي من شرور هذا العالم ما دمت أنت ملاكي الحارس كما تدّعي . تردني عن عمل الشر إذا أوشكت أن أرتكبه، وتعصمني عن كل خطاء وإثم، وتحفظني من كل أذى . وإلاّ فما معنى أن تكون ملاكي الحارس ؟

— تعني أنك تتنازل عن حريتك وتسلّمني زمام نفسك، وتجعلني مسئولاً عنك أمام ديانك . فأي فضل لك تستحق عليه ثواباً . وأي فرق بينك وبين الدودة .

— وهل أنا حرٌّ حقيقة ؟

— أنت كما تشعر . ألا تشعر أنك حرٌّ ؟

— بلى وأحياناً أشعر اني غير حرّ

وحينئذٍ سمعت جرس الباب يطن. فقال قم استقبل زائراً الآن، ودع حديث الحرية الى حين آخر .

ثم ابتدأ الضوء يبدّد ظلماء المكان تدريجاً، وشرع طيف الملاك يختفي رويداً الى أن عادت الغرفة جلية لي كما كانت قبلاً . فقمت وفتحت الباب . وما أدهش ما رأيت :

الفصل الرابع عشر

مغنطيسان مصطدمان

يا لغرابة ما رأيت ، دهشت من أنتِ

— ويك أتنساني ؟ أتنسى سلمى ؟

— سلمى الزعفراني . الصديقة القديمة ؟

فجعلت أفرك عيني لكي أتحقق هل أنا في حلم أم في يقظة . في أية حياة أنا الآن ؟ خفت أن تستجنني هذه المرأة فجاريت الظرف الذي أنا فيه . قالت : — بل صديقتك الجديدة سلمى عقيلة ستنفورد .

جعلت أحملق فيها وأجيل نظري الى أن فرطت مني كلمة كأني أكلم نفسي : لعلي عدت الى حياتي الأولى أو حلم الحب القديم

— حياتك الأولى ؟ هل تهذي ؟

— أجل ذلك الحلم القديم الجميل السعيد في تلك الحياة القديمة السعيدة . نعم سلمى سلمى ان لقاءك في الكونتينتال بعد غياب طويل ردَّ لي سعادة كنت أفقدها . آه : ما أجمله حلماً ، وما أسعده وهماً . حقاً لا سعادة حقيقية إلاَّ في الأحلام ، ولا لذة تامَّة إلاَّ في الأوهام . أي نعم هاتي لي سعادتي ياسلمى ، أطيلي حلمي السعيد ياسلمى ، مددي زمن منامي . أكثري من أوهامي السارة ياسلمى .

— سلامة عقلك يا يوسف ، أي حلم هذا الذي تعني ؟ إنك في يقظة النهار وانتباه العقل . اصح من غفلة الحمى ، وتذكر حديث اللقاء في الكونتينتال يا يوسف .

يوسف ؟ همست لنفسي : يوسف ؟ إذاً أنا الآن في حياتي الأولى التي ردني لها الملاك . وما أنا « جميل » في حياتي الثانية . إذاً الثانية هي الحلم وقد تيقظت منه . أو ان ملاكي ردَّ لي الحياة الأولى لأني ندمت على استبدالها . ويلاه ! أنشوانُ أنا ؟ أم أنا مخبول ؟

ثم قلت على مسمع سلمى : إني ياسيدتي في خبل ، في ذهول . تبًّا لهذه الحمى . أحقيقة إنك سلمى الزعفراني ؟ أين كنتِ وكيف جئتِ ؟

فقالت : عدْ إلى رشدك ياعزيزي . ما أنت في حلم ، ولا وهم ، أنا سلمى الزعفراني وقد ودعتني في ميناء بيروت يوم هاجرت الى أميركا مع أمي وتركت لك دموع الفراق ، وهناك وجدنا أبي ناجحاً بتجارة المطاط ، وذا صلة بستنفورد ملك المطاط . فأحبني ستنفورد ووضعني في الجامعة لكي أتعلم . ثم تزوجني . ثم عدت الى الشرق حنيناً الى الوطن . وبحثت عنك فقيل لي إنك في القاهرة . وعيَّنت « مخبراً » يبحث عنك

ويستقصي أخبارك ، الى أن اجتمعنا في الكونتينتال . وكان بيننا من عتاب وذكريات ما كان . وسرعان ما علمت إنك في أزمة افلاس، فأرسلت اليك حوالة تستعين بها لوقت قصير، وتحفظ كرامتك ريثما تدبر تدبيراً آخر يرد لك مكانتك. معي مال كثير أضع قسماً منه تحت تصرفك. فماذا رددت الحوالة ؟ أعزة نفس تجافي، وترفع عليّ أنا التي أحببتك حبًّا جمًّا ؟ والحب لا يُذل يا عزيزي بل يرفع : فارعو الآن .

— إذن أنا في يقظة الآن . إذن سلمى تتعطف الآن . سلمى تنسى الأسى الذي نالها من اعراضي في عهد الصبا، وتنسى الدموع التي استذرفها صدي . ما أطيبك يا سلمى . لست أندم على ذلك الاعراض الذي أبكاك يوم الوداع ، فقد أفرحك في زمن النوى الطويل ، لو استجاب يوسف العنابي رجاءك حينئذٍ لما نال ستنفورد يدك ، ولما تمتعت بجاه ستنفورد وغناه . فاهنئي . إنما أنت جديرة بالهناءة والسعادة . وأما أنا فخليق بالشقاء والبؤس، وأخيراً بالفناء المهين

— بل أنت جدير بالحياة الطويلة السعيدة ، ولست أنت الذي يتكلم الآن . الحمى تتكلم . يجب أن تنقل الى المستشفى . سأدبر أمر انتقالك اليه عاجلاً . نم الآن هادئاً .

* * *

وما ان نهضت من مقعدها حتى قرع الباب ففتحته . وما كان أشد دهشتي حين رأيت فريدة الصائغ الحبيبة القديمة التي اجتذبتني في أيام الصبى من سلمى . رأيتها تدخل وجرى بين الحبيبتين الحديث :

قالت سلمى مُنعمة النظر فيها : ألا تكونين أنت الآنسة التي اعترضت في سبيلي مرة قبل هذه ؟

ورأيت فريدة تحملق فيها وقالت : عجباً لا أتذكر أني رأيتك قبل الآن لكي أتذكر السبيل الذي احتكرته لنفسك فاعترضتك فيه . السُبل كثيرة واسعة لجميع الناس، فلا أحد يعترض أحداً .

فقالت سلمى : الناس لا يعترضون بعضهم بعضاً لضيق السبيل بل لسبق الوصول. دفعتني في قديم الزمان الى الوراء فهل وصلت الى الهدف المؤمل في هذا الأمام ؟

ورأيت فريدة تتنهد وهي تتبين سلمى وقالت : آه ! ما زلت جادّة الى الهدف ولمّا أصلْ . ألا تكونين السيدة التي سابقتني اليه قديماً، وقد سبقتني اليه أخيراً . لقد سمعت إنك وصلت الى هدف آخر ممتع . فما بالك تعودين الى الهدف الأول . أتطمحين الى الهدفين معاً ؟

فقالت سلمى : وقد سمعتُ إنك طمحت قبلي الى هدف آخر فطمحت قبلي الى هدفين ، فلماذا تستنكرين عليّ هذا الطموح ؟

فقالت فريدة متألمة : لست أنكره يا عزيزتي عليك . وإنما أحسدك عليه . لقد

نلت الأمنيتين . وأما أنا فخسرت المطمعين، أنت تتمتعين بقلبين ، وتنعمين بحبين ، وأنا أشقى بخيبتين، أفلا تتفضلين أن تتنازلي عن أصغر نعمائك إنصافاً لي ؟ وتكونين سيدة الكرماء كما أنك سيدة الكبراء .

— اني أرثي لك يا عزيزتي ، وأخلي لك الجوّ لكي تروّي ظمأ قلبك من رحيق الحب وانما لا تنكري عليّ عطفي على هذا القلب الطيب الذي لوّعته كوارث الحدثان وغير الزمان .

وهنا تقدّمت سلمى إليّ لكي تصافحني مودّعةً ، ودسّت تحت مخدتي شيئاً لا أدري ما هو ومضت مسرعةً .

ملاك دخل ، وملاك رحل .

تقدّمت فريدة وكأن باب الفردوس انفتح وتدفّق النعيم الى داري ، ونهضت في سريري أتبينها .

وحملقت فيّ تتبين الترحاب في ابتسامتي، والسعير في خدّي ، والنشوة في ترنحي ، وجست يدي ووضعت مقياس الحرارة في فمي .

أدركت أن حُمّاي تكاد تطلق الزئبق من طرف مقياس الحرارة ، وقالت: اضطجع في سريرك يا عزيزي ولا تزعج نفسك .

فاضطجعت ، ولما نزعت المقياس من فمي ونظرت فيه متجهمة قلتُ : ما الذي دفعك الى هذا الوطيس الذي ألتهب فيه ؟ فهل جئت لكي تطفئيه، أو لكي تحترقي فيه ؟

قالت - جئت لأحد الأمرين ، فأيهما تشاء .

قلت : لا تستطيعين أن تطفئي الهشيم الملتهب، فخيرٌ لك أن تبتعدي عنه إذ لا فائدة لك من احتراقك فيه ، بعد قليل يصبح الهشيم رماداً .

قالت : سأطفىء الهشيم وأرده عشباً نضيراً في مرجةٍ مخملية خضراء

قلت : هل تستطيعين أن تحيي العظام وهي رميم ؟

قالت : الإيمان يستطيع

قلت : هل بقيت عندك حبة خردل منه ؟

قالت عندي ما ينقل الجبل من هنا الى هناك .

قلت : أين كانت خردلة الإيمان هذه يوم كنت أغالب الزمان، ويكافحني الحدثان، وأنا في مسيس الحاجة الى قوّة إيمان

قالت : كانت مزروعة ، وأخيراً نبتت خردلة الحب حُرّة طاهرة نقية .

قلت : أجل طاهرة نقية ، ثمّ لفحتها ريح سموم

قالت : أجل لفحتها ولكنها لم تجففها، فعادت واعتدلت وأثمرت إيماناً قويّاً يشفيك مريضاً ويحييك ميتاً

فتبرّمت وقلت : « في الصيف ضيعت اللبن » يا هذه

قالت : ضيعتُ اللبن ، والآن وجدت العسل .

— أوَما علمتِ أني أفلست؟
— أوَما علمت أني فديتك؟
— فديتني؟ كيف؟
— وفيت دينك واستردت تجارتك لك
— ويحك! لا تدرين ما ذا تفعلين
— أدري انني ضننتُ بكرامتك واستنكرت هوانك.

فاستبقيت لك حريتك. لست بمشتريتك بمال، بل بقلب ان كنت تبيع

— لله منكِ بارعة في الدهاء، كما أنتِ بارعة في الجمال. كنت أعرف الثاني، وأجهل الأول. فأنّى لكِ هذا؟ ومن علّمكِ؟

قالت: علمنيه الأستاذ الأعظم رامي السهام (إلّه الحب)

قلت: وهل منحكِ الأستاذ الدبلوم؟

قالت: نعم ولكن ينقصه توقيعك عليه فتبسمت ملءَ شفتي، وانعقد لساني.

فقالت ألا تسامح؟ ألا تصفح؟

قلت: لك عليَّ فضل عظيم، فكيف أحقد؟

— أي فضل تعني؟

— لولاكِ لما درست اللغة الانكليزية ولا دخلت الكلية، لولاكِ لما صرت إنساناً

فانحنت عليَّ وخطفتُ منها قبلة لأول مرة. وقالت، طب نفساً وقرَّ عيناً، وهون عليك فستتمتع بالعافية عاجلاً، إني ذاهبة لكي أستدعي لك الطبيب، وسأمرّضك بنفسي

ثم خرجت وتركتني ذاهلاً مما قالت: وفت ديني. أي دين؟ أدين شمعون؟ هذا حلم حديث لا علم لها به. وهي كانت في حلمي القديم. فهل عنت دين سليم الصافي؟ فهو حلمٌ قديم... هل لا أزال في الحلم القديم؟ ربّاه أنقذني من هذا الخبل. ان عقلي يتقلقل في دماغي. أظنني في بدء جنون

الفصل الخامس عشر

هل ما قدّر يكون؟

دخل صديقي الرحماني وجسّ نبضي، وحسّ حرارتي، ووضع مقياس الحرارة في فمي. ثم فحصه وقال: لقد هبطت حرارتك الى الثمانية والثلاثين والنصف، إذا لم تهبط غداً الى السبعة والثلاثين فآخذك الى المستشفى. لقد دفعت للمستشفى عشرة جنيهات عربوناً لغرفة حسنة، والأرجح أننا لا نحتاج إليها. أما التسعون جنيه الباقية فأردها الى خزانتك في محفظتها، إذاً تكون غداً في حالة جيدة إن شاء الله

قلت: ان زيارة فريدة خطيبتي في حياتي الأولى أنعشتني جداً فتحسنت حُمّاي.

فقال صديقي مجفلاً: خطيبتك في حياتك الأولى؟ هل لك حياتان، أم إنك عدت الى الهذيان؟

— وي. وي. معذرة يا عزيزي. أتكلم في حلم. فلا تحاسبني على تخريفي. ان الحمّى تريني أشكالاً وألواناً. أظن الأفضل ان تنقلني الى المستشفى في الحال على كل حال. فإن بقيت أهذي فانقلني الى مستشفى الأمراض العقلية، لأن دماغي أخذ يتهدّم ومراكزه يختلط بعضها ببعض، وأليافه جميعاً تندمج كتلة واحدة. آه يا عزيزي الحميم النصوح المخلص. فقد ضعضعت الحمى عقلي.

وطفقت أبكي وهو يؤاسيني الى أن نمت وتركني ومضى. لا أدري في أي هزيع من الليل، وأنا في إبّان إغفاءتي، شعرت بقوة تهزّ جوانحي، فإذا بي أرى شبح ملاكي واقفاً لدى سريري بشكل نوراني بديع في حلك الليل. فجلست في السرير وقلت: أهلاً يا ملاك الرحمة.

فقال: لقد عدت الى حياتك الأولى، ثم ما لبثت إن حسبتها حلماً. وحسبت الثانية الحقيقة. وأسفت لضياع ما كان في تلك من حب لفريدة، وحب لسلمى. فها أنت الآن على مفرق الطريقين بين الحياتين. فأيتهما تريد، وأيتهما تختار، لتتمة العمر فيها؟

قلت: كلتاهما عندي سيّان. اخفاق في الحياتين وخيبة في الحبين. وإنما أتمنى أن أفهم شيئاً واحداً. لماذا تطابقت الحياتان؟ هل لو عشت حياةً ثالثة....

فقاطعني قائلاً: — ستطابق الثالثة الثانية، والأولى أيضاً، وهلمّ جرّا.

قلت: إذن لا فائدة من التجربة والاختبار. حيث لا حرية في الاختيار. فكأنّ ما قدّر يكون

— لا شأن للحرية في هذه المطابقة.

قلت: إذن أين السر في هذه المطابقة؟

قال: السر في جبلتك أولاً. ثم في بيئتك

ثانياً . إذا تشابهت الجبلتان والبيئتان تشابهت النتيجتان . إذا تغيّر أحد الجانبين تغيرت النتيجة . نفس الطبيعة والمزاج والأخلاق في نفس البيئة تنتج نتيجة واحدة . وإنما السمكة في الماء سمكة ، وفي البر زحافة ، وفي الهواء طير . فأنت في تقلبك على حياتين لم تتغير جبلتك ، ولا تغيرت بيئتك ، فلا يمكن أن تختلف حالتاك اختلافاً جوهرياً .

قلت : إذن الطبيعة تلعب في الانسان كما تشاء فلا اختيار له .

قال : ليس للطبيعة مشيئة ولا اختيار ، وإنما هو تفاعل بين مزاج الانسان وأخلاق الطبيعة ، أو إذا شئت فقل بين اخلاق الانسان ومزاج الطبيعة .

قلت : إذن الانسان لا يستطيع أن يغير شيئاً في مصيره . فمزاجه والطبيعة يقرران مصيره .

قال : بل يتغير مصير الانسان إذا قضت ارادته أو ظروفه بتغير بيئته . وقد يمكن تغير بعض مزاجه أيضاً بتغير بيئته .

قلت : إذا كان مصيره يتوقف على بيئته فهل للانسان مشيئة في جبلته وبيئته ؟

قال : في جبلته لا مشيئة له . هي قضاء أزلي ، ولا ارادة له في القضاء . وأما بيئته فله حرية في تغييرها ، والانتقال من بيئة الى أخرى ، ومن وسط الى آخر ، ومن معشر الى معشر .

قلت : إذا لم تكن لي مشيئة في جبلتي فاذاً أنا غير حر .

قال : نعم لست حراً في إنشاء جبلتك ، إنما هي ارثٌ لك من سلالتك . مزاجك ، طبعك ، خلقك — كل هذه ليست منك ، هي مسلسلة من سلالتك ، فليس لك سلطة على إنشائها ، ولكنك حرٌ في اختيار بيئتك ، ولا سيما بعد أن تخرج من حضانة والديك ، ومصيرك يرجع الى حريتك في هذا الاختيار

قلت : ما دمتُ لا إرادة لي فيما يتوقف عليه مصيري ، وهو مزاجي وخلقي حتى بنية جسدي فما أنا حرٌ ، ولدت قاصر العقل فلا يمكن أن أصير فيلسوفاً مهما غيرت بيئتي . أو ولدت ذكياً ، فيمكن أن أكون نابغة أينما كانت بيئتي . فاذاً ارادتي جزء من جبلتي . فليس لي سلطة عليها ، فما أنا حرٌ في أن أجعل نفسي ذكياً أو أبله . أعني أن ما يتراءى لي من حرية الارادة ليس إلا وهماً أو خداعاً للضمير والوجدان ، هذه حرية مقيدة ، هذه سخافة

قال : ما قلته الآن هو الحقيقة ، لا حرية لك في نشأتك ، ذكياً كنت أو أبله ، عصبي المزاج أو هادىء الخلق الخ . وانما أنت حرٌ الى حدٍ في تصرفاتك ، وبقدر هذه الحرية أنت مسؤول ، فلا تتنصّل من مسؤوليتك . في حياتيك تطابقٌ في حوادثهما الرئيسية ، لأن مزاجك غالب على ارادتك في تصرفاتك ، فأنت طيب القلب فلا تستطيع أن تكون رديء النفس . لذلك أحسنت الظن بالناس

في الحياتين فوقعت في حبائل الناس في الحالتين . ولكن الحياتين لم تتطابقا في الحوادث الثانوية لأن حرية ارادتك لعبت فيهما دورين مختلفين فتغيرت النتيجة بعض التغير .

فتضجرت وقلت : ما دام في جبلتي عناصر جوهرية كخلقي ، ومزاجي ، وبنية جسدي ولا حرية ارادة لي فيها ، فما أنا مسؤول عن تصرفاتي الثانوية التابعة لسلطان جبلتي . وما دام هذا العالم ملآناً من الخير والشر ، وفيه مسالك الى الخير والشر لا تحصى ، فالانسان عرضة للوقوع في الأغلاط والأوزار . وما من أحد مهما كان موفقاً في مزاجه وأخلاقه يستطيع أن ينجو من الوقوع في الخطأ والوزر . إذن ليس من العدل أن يدان ويعاقب .

قال : يدان على قدر ما له من الحرية في تصرفاته لا قدر ما له من التوفيق في مزاجه .

— : —

الخير والشر

قلت : ولماذا يكون في العالم شر ؟ وكيف نشأ الشر ؟

قال : لابدَّ من نشوء الشر ، لأن الحركة طبيعية في الأكوان ، وسببها قوة التجاذب التي هي طبيعية في الهيولى أصل المادة . وما دام بين أجزاء المادة تجاذب فلا بدَّ من حدوث تصادم أو تفاعل بينها . هذا هو أصل الشر . ففي العالم الانساني تحرك مستمر لأن فيه قوة الأميال والأهواء ، وبعبارة أخرى قوة الشهوات ، فأفراده وجماعاته متجاذبة متنافرة ، وبالتالي متصادمة أيضاً ، فالشر ضربة لازب له ، والتصادم مؤلم ، والألم عقاب . وعلى قدر شدة التصادم أو خفته تكون الدينونة .

قلت : هل للانسان يد في تخفيف التصادم .

قال : نعم لتعقله الذي اختصَّ به دون جميع الكائنات عمل في تحايد التصادم . فهو المسؤول .

قلت : إن التصادم في الطبيعة المادية أو الأخلاقية أو كل تصادم إنما هو خارج عن حركة الفرد . هو حادث كوني عالمي لا يستطيع أي انسان أن يسيطر عليه ، ولا على أقل حركة منه . ولأن لحوادث الكون تدخلاً في أعمال الانسان ، فلا ارادة للإنسان فيما يفعله ، بل هو مجبر على فعله ، وان كان يشعر انه حرٌّ ، وما هو بحرّ . وبالتالي فما هو مسؤول . وحاصل القول اني أود أن أعلم سبب نجاحي أو اخفاقي في الحياة ، هل كان طوع ارادتي ؟ هل هو متوقف على الاجتهاد والسعي ، أو على التوفيق ؟ على أيهما يتوقف ؟

قال : يتوقف على كليهما ، تارة على هذا وأخرى على ذاك ، أنت لا تستطيع أن تمنع القَدَر اذا أغرق السفينة ببضاعتك ، وانما تستطيع أن تسلم من خسارها ، اذا أمَّنت

ثانياً . إذا تشابهت الجبلتان والبيئتان تشابهت النتيجتان . إذا تغيّر أحد الجانبين تغيرت النتيجة . نفس الطبيعة والمزاج والأخلاق في نفس البيئة تنتج نتيجة واحدة . وإنما السمكة في الماء سمكة ، وفي البر زحافة ، وفي الهواء طير . فأنت في تقلبك على حياتين لم تتغير جبلتك ، ولا تغيرت بيئتك ، فلا يمكن أن تختلف حالتاك اختلافاً جوهرياً .

قلت : إذن الطبيعة تلعب في الانسان كما تشاء فلا اختيار له .

قال : ليس للطبيعة مشيئة ولا اختيار ، وإنما هو تفاعل بين مزاج الانسان وأخلاق الطبيعة ، أو إذا شئت فقل بين اخلاق الانسان ومزاج الطبيعة .

قلت : إذن الانسان لا يستطيع أن يغير شيئاً في مصيره . فمزاجه والطبيعة يقرران مصيره .

قال : بل يتغير مصير الانسان إذا قضت ارادته أو ظروفه بتغير بيئته . وقد يمكن تغير بعض مزاجه أيضاً بتغير بيئته .

قلت : إذا كان مصيره يتوقف على بيئته فهل للانسان مشيئة في جبلته وبيئته ؟

قال : في جبلته لا مشيئة له . هي قضاء أزلي ، ولا ارادة له في القضاء . وأما بيئته فله حرية في تغييرها ، والانتقال من بيئة الى أخرى ، ومن وسط الى آخر ، ومن معشر الى معشر .

قلت : إذا لم تكن لي مشيئة في جبلتي فاذاً أنا غير حر .

قال : نعم لست حراً في إنشاء جبلتك ، إنما هي ارثٌ لك من سلالتك . مزاجك ، طبعك ، خلقك — كل هذه ليست منك ، هي مسلسلة من سلالتك ، فليس لك سلطة على إنشائها ، ولكنك حرٌ في اختيار بيئتك ، ولا سيما بعد أن تخرج من حضانة والديك ، ومصيرك يرجع الى حريتك في هذا الاختيار

قلت : ما دمتُ لا إرادة لي فيما يتوقف عليه مصيري ، وهو مزاجي وخلقي حتى بنية جسدي فما أنا حرٌ ، ولدت قاصر العقل فلا يمكن أن أصير فيلسوفاً مهما غيرت بيئتي . أو ولدت ذكياً ، فيمكن أن أكون نابغة أينما كانت بيئتي . فاذاً ارادتي جزء من جبلتي . فليس لي سلطة عليها ، فما أنا حر في أن أجعل نفسي ذكياً أو أبله . أعني أن ما يتراءى لي من حرية الارادة ليس إلا وهماً أو خداعاً للضمير والوجدان ، هذه حرية مقيدة ، هذه سخافة

قال : ما قلته الآن هو الحقيقة ، لا حرية لك في نشأتك ، ذكياً كنت أو أبله ، عصبي المزاج أو هادىء الخلق الخ . وانما أنت حرٌ الى حدٍ في تصرفاتك ، وبقدر هذه الحرية أنت مسؤول ، فلا تتنصل من مسؤوليتك . في حياتيك تطابقٌ في حوادثهما الرئيسية ، لأن مزاجك غالب على ارادتك في تصرفاتك ، فأنت طيب القلب فلا تستطيع أن تكون رديء النفس . لذلك أحسنت الظن بالناس

في الحياتين فوقعت في حبائل الناس في الحالتين . ولكن الحياتين لم تتطابقا في الحوادث الثانوية لأن حرية ارادتك لعبت فيهما دورين مختلفين فتغيرت النتيجة بعض التغير .

فتضجرت وقلت : ما دام في جبلتي عناصر جوهرية كخلقي ، ومزاجي ، وبنية جسدي ولا حرية ارادة لي فيها ، فما أنا مسؤول عن تصرفاتي الثانوية التابعة لسلطان جبلتي . وما دام هذا العالم ملآناً من الخير والشر ، وفيه مسالك الى الخير والشر لا تحصى ، فالانسان عرضة للوقوع في الأغلاط والأوزار . وما من أحد مهما كان موفقاً في مزاجه وأخلاقه يستطيع أن ينجو من الوقوع في الخطأ والوزر . إذن ليس من العدل أن يدان ويعاقب .

قال : يدان على قدر ما له من الحرية في تصرفاته لا قدر ما له من التوفيق في مزاجه .

—:—

الخير والشر

قلت : ولماذا يكون في العالم شر ؟ وكيف نشأ الشر ؟

قال : لابدَّ من نشوء الشر ، لأن الحركة طبيعية في الأكوان ، وسببها قوة التجاذب التي هي طبيعية في الهيولى أصل المادة . وما دام بين أجزاء المادة تجاذب فلا بدَّ من حدوث تصادم أو تفاعل بينها . هذا هو أصل الشر . ففي العالم الانساني تحرك مستمر لأن فيه قوة الأميال والأهواء ، وبعبارة أخرى قوة الشهوات ، فأفراده وجماعاته متجاذبة متنافرة ، وبالتالي متصادمة أيضاً ، فالشر ضربة لازب له ، والتصادم مؤلم ، والألم عقاب . وعلى قدر شدة التصادم أو خفته تكون الدينونة .

قلت : هل للانسان يد في تخفيف التصادم .

قال : نعم لتعقله الذي اختصَّ به دون جميع الكائنات عمل في تحايد التصادم . فهو المسؤول .

قلت : إن التصادم في الطبيعة المادية أو الأخلاقية أو كل تصادم إنما هو خارج عن حركة الفرد . هو حادث كوني عالمي لا يستطيع أي انسان أن يسيطر عليه ، ولا على أقل حركة منه . ولأن لحوادث الكون تدخلاً في أعمال الانسان ، فلا ارادة للإنسان فيما يفعله ، بل هو مجبر على فعله ، وان كان يشعر انه حرٌّ ، وما هو بحرّ . وبالتالي فما هو مسؤول . وحاصل القول اني أود أن أعلم سبب نجاحي أو اخفاقي في الحياة ، هل كان طوع ارادتي ؟ هل هو متوقف على الاجتهاد والسعي ، أو على التوفيق ؟ على أيهما يتوقف ؟

قال : يتوقف على كليهما ، تارة على هذا وأخرى على ذاك ، أنت لا تستطيع أن تمنع القَدَر اذا أغرق السفينة ببضاعتك ، وانما تستطيع أن تسلم من خسارها ، اذا أمَّنت

عليها في شركة تأمين ، ولا تستطيع أن تمنع شح الموسم في فصل القيظ، ولكنك تتلافى الحاجة اذا كنت تقتصد ، وتكنز المؤونة ليوم المحل والقحط ، ولا تستطيع أن تتلافى الخسارة اذا أزل القدر الأسعار لطارىء لم يكن في الحسبان ، ولكنك تتدارك الافلاس اذا أنعمت النظر في الصكوك قبل أن توقع عليها ، لكي تتأكد انها لا تحتمل التزوير ، او انها مطابقة لما وافقت عليه ، فاذا كان عندك بضائع حين نشب الحرب كان ذلك توفيقاً ، وان حدث صلح فجأة ومخزنك مكتظ بالبضاعة الغالية ، كان ذلك نحساً لك. فليس لذكائك شأن في أية الحالتين . وانما لكي تكون مرجّح النجاح يجب أن تعتمد على الذكاء في كل حال ، ولا تتوكل على التوفيق . ليس لك يد في القدر ، وانما لك حرية في أعمال الفكر والاجتهاد . ولكل مجتهد نصيب .

— ألف شكر لنصائحك يا سيدي الملاك الفيلسوف .

***

عند ذلك سمع جرس الباب يقرع فقال : قم استقبل زائراً ، وفي اللحظة نفسها اختفى ، ورأيت مائع نور الصباح قد جرى في حجرتي فقمت وفتحت الباب ، فاذا بي أشعر بصدمة ردّتني الى الوراء صريعاً

الفصل السادس عشر

شيطان وملاك

هذه صدمة من الصدمات التي قال عنها ملاكي الآن ، رجعت مسرعاً الى سريري مترنحاً من صداعي، ومحترقاً من سعير الحمى في بدني ، دخلت عليَّ لندا زوجتي المطلقة، دخلت بخفة روحها ، وابتسامتها المعتادة ، وقالت : سمعت يا عزيزي أنك مريض . جئت أعودك ، كيف حالك ؟

— حالي كما تشتهين ، ماذا تشتهين ؟

— السلامة والعافية لك يا عزيزي، أنت رجل طيب القلب جداً ، ولكنك ساذج ، بل مغفل .

— حقاً إني مغفل ، وإلاّ لما سلمتك ذقني قبل أن أسافر الى أوروبا، كما سلمتك قلبي بعد أن قبلتك في مكتبي

بل أنت كلب مخلص أمين

— أجل أخلصت لك كالكلب أمين، وانقدت لك كحمار يتقدم الى البردعة من تلقاء نفسه مني رآها في يدي صاحبه لكي يضعها على ظهره ، ويقف لديه ويمتطيه .

فقهقهت وقالت : تعيش يا حماري، لقد قلت ما كان يجول في ضميري . أنت حمار ذكي . ولكنك لست معنفصاً ، ولا «ملحلحاً» يا عزيزي ، والاّ لكنت أمنحك لقب جواد نبيل، يقف الى جنب فارسه حالما يستوقفه .

— لله من كيدك يا امرأة ، لماذا لم تظهر هذه البراعة منك من قبل ؟ فقد ظهرت لي كالحمامة الوديعة الطاهرة .

— من حسن البراعة أن لا تظهر البراعة إلاّ في حينها يا عزيزي .

— ولماذا جئتِ ونحن الآن مطلقان، وصار بيننا حواجز ؟

وأدارت وجهها الى الخزانة وفتحتها ، ورأيتها تأخذ منها محفظة النقود ، فنهضت لكي أردعها ، ولكن قوتي خانتني ، وهي ارتدت الى الوراء قائلة : لا تزعج نفسك يا عزيزي ، أنت مريض جداً ، وضعيف القلب ، نم في سريرك ، ولا تجاهد اثلاّ يشتد مرضك

وأضجعتني في سريري رغم أنفي وألقتني فيه ، وأنا واهي القوى وقالت : لأجل هذا جئت ، لقد أودعت المحفظة هنا وفيها مائة جنيه . ولكني لا أرى فيها إلاّ تسعين .

قلت : أجل لقد شعرت بشيء من الشكر لك إذ فصلت لي من تركتي مائة جنيه لكيلا أضطر أن أتسوّل لأجل النفقة في المستشفى بعد هذا الخراب

قالت : لا أظنك في حاجة الآن الى أكثر من العشرة التي سرقتها من المحفظة . أمّا أنا فإني في حاجة ماسة إليها كلها

ثم أودعت محفظة النقود في شنطتها (حقيبتها)

فقلت : ويحك يا سليطة ، خافي الله يا لصة . إني مريض وليس معي فلس واحد، فكيف تتركيني هكذا ولا سند لي ، والمال الذي أخذته هو مالي

قالت : البركة بجمعية الرفق بالحيوان تهتم بك ربما تدفنك في خرابة إذا لم تشفَ ، فلا تحمل همًّا ، سأتلفن للجمعية لكي يأتي مندوبها إليك . نم الآن .

ودفعتني بيدها اذ نهضت ، فوقعت على السرير واهياً

— لله منك يا قاسية ، لا رحمة ولا شفقة ولا عطف يا ظالمة .

— لست تجد أعطف من فؤادي على الدينار يا غبي ، كلي عواطف للفلوس ، كلي حنوٌّ على المال ، تذرف دموعي أسىً إذا رأيته يبذل بهوان .

قلت المرء يعطف على ولده لأنه منه وله وقد ربَّاه ، ويبذل نفسه لأجله ، وأما أنتِ فلم تبذلي جهداً أو تعباً لأجل هذه الفلوس ، اختلستها اختلاساً . فلماذا تعطفين عليها ؟

قالت : ان أحبَّ مالٍ للانسان وأهيج لعواطفه هو مال يحصل عليه اختلاساً أو احتيالاً . وأما الفلوس التي يتعب ويشق في تحصيلها فلا تستحق عنايته ولا حبه . بل تستحق نقمته عليها وكرهه لها . ولهذا ينفقها ابتذالاً ، أو يبذلها بحرارة لأجل حاجته ولذلك لا يلتذ بها . وأما الفلوس التي يحصل عليها بالاحتيال والاختلاس وبغير نصب فهي مقدسة ، يحافظ عليها بكل قوته ويختزنها ويسهر عليها ويحميها ويذوب أسىً إذا فقد ذرة منها . عمرك الله هل رأيت ركام الأموال في المطابخ ، أو في خزائن الملابس ، أو في رياش القصور أو المنازل لأجل التمتع والتنعم ، أم تراها في قلاع المصارف للادخار ولتضخيم الثروات . وهل رأيت المصارف والخزائن والمحافظ مكتظة إلاّ بمال السحت ؟ وهل رأيت ترفاً إلاّ بمال الحرام ؟ . وهل رأيت بطراً إلاّ بالمال المبتز من طبقة المعوزين . وهل رأيت الصدور منتفخة إلاّ بأوصاب المغامرين ؟ وهل رأيت شظف العيش إلاّ للناس المعانين في العمل الشاق ؟ لولا هؤلاء يا عزيزي لم يكن ثمت بطيرون مترفون . ولولا بذل العاملين عرق القربة لما امتلأت بطون المصارف والخزائن . فالناس يا عزيزي صنفان : صنف يكدح ويشقى ، وصنف يحتال على ذلك ويختلس منه ويتمتع على حسابه . صنف يبذل جهداً فينحل ويسقم ، وصنف يدخر وينتفخ ويسمن . فأنت من الصنف الأول يا عزيزي فاشقَ . وأما أنا فلا أريد أن أكون إلاّ من الصنف الثاني . فلا تلمني إذا ادّخرت وتمتعت على حسابك . ومن أقرب إليَّ منك لكي أخصه بهذه السخرة ؟ ومن أخضع رقبة منك لكي أثقل كاهله ،

بهذا الوقر ؟ عسى أن تشفى لكي نعود الى تبادل الشقاء لك ، والتمتع لي ، والغُرمَ لك والغُنم لي . نم يا حبيبي نم .

فصحت بها في إبان ارتفاع حرارتي ، وتصاعد الدم الى رأسي : ألا لعنة الله عليكِ يا هذه . هل كنتُ في حاجة الى هذه المحاضرة الجهنمية منكِ ؟ ألا ضمير لكِ ، ألا قلب حب عندك ؟ ألا عطف روح بعد عشرة بضع سنين ، يا أفعى ، يا ثعلبة ، يا رتيلاء ؟

فقهقهت وقالت : ضمير يا مغفل ؟ أين الضمائر يا غبي . لقد عُرضت في سوق تنازع البقاء فكسدت وبارت ، وتعفنت وفسدت ، إن هذه الضمائر التي لا تزال لسذاجتك تؤمّل منها خيراً قد أصبحت بؤرة مرا آة ، وحمأة مخادعات ، ومستنقع نفاقات . وأما قلوب الحب التي تتلهف اليها فقد أصبحت أوكار مماذقات . وأما تلك الأرواح التي تنشد عطفها فقد أصبحت أرواح جبن ، أو رياح أنانية تصفر في أجواف أصنام . فاذا كنت تتوقع نجدة من الضمائر فاطلبها من جوّ الملائكة . أو إذا كنت تنتظر من القلوب حبّاً ، فاطلبه ممن تبذل له قلبك لكي يأكله ويهضمه ، أو إذا تمنيت اخلاصاً من الأرواح ، فلا تجد أخلص مني لك في كشف هذه الحقائق لبصيرتك بصراحة .

فصحت : ألا تبّاً لكِ . لقد قلبتِ لي الكون ظهراً على بطن يا فاجرة ، فأريتني جحيماً أشد عذاباً من عذاب الأرض . لقد جعلتِ يا شقية هدف هذا النعيم أبعد عني من المثل الأعلى ، وأريتني بمنظار التهويل مصير الجحيم أقرب اليّ من حِمَم البركان . تبّاً لكِ لقد صورتِ لي الكون مملوءاً شراً يا خبيثة فلم يعد يظهر فيه خير . كيف يتقدم العالم على أجنحة الشرور يا شيطانة ؟

قالت ضاحكة هازئة : الخير ؟ هيء هيء : الشر ؟ قه قه ، الخير والشر يا عزيزي نسبيان . فما هو شرٌّ لك هو خيرٌ لي . وما هو خير لزيد هو شر لعمرو . وإذا لم يخسر فلان فلا تكسب فلانة . وإذا لم تفلس أنت فلا أثري أنا . وإذا لم يضعف جرجس فلا يسمن كوهين . وهكذا الدنيا خير وشر ، يتبارزان في معمعان العمران ، أو يتناوبان دورات الزمان ، كما يتعاقب النيران . فلا تحزن يا عزيزي إذا رأيت شراً مستطيراً هنا ، فان هناك خيراً متدفقاً . والمهارة في هذه الحياة هي أن تجري الى ناحية الخير قبل أن تدهورك ناحية الشر . اركض الى ناحية الربح ، قبل أن تهبط في هاوية الخسران . هل ارعويت ؟

— ويحك يا شريرة . هل أرعوي بهذه التعاليم التي لا تستقيم لا في دنيا ولا في آخرة . ولا تنفع في نعيم ، ولا في جحيم

— هذه هي تعاليم هذا العالم يا عزيزي ، هذه شريعة تنازع البقاء الذي هو قسطاس هذا العالم . فلا تتعب نفسك في تغييرها ، لقد سبقك كثيرون الى اصلاح العالم ، فما

أعطوا العالم الآ تعاليم تزيده تعقيداً ، وشرائع تزيده آثاماً ، ونواميس تزيده ذنوباً . ولولا الشريعة لم تكن الخطيئة . كم نبي ، وكم رسول ، وكم معلم ، وكم مصلح ، ظهر في هذا العالم ؟ فهل قلت الشرور أم كثرت ! هل كانت حروب العصور الغابرة أفظع من الحروب الحاضرة ؟ وي . وي كلما تقدمنا في الزمان ، اشتدت مصائب العمران ، كان الإنسان في عصر الحمار والبغل والحصان ، أقل خوفاً من ويلات الحروب منه في عصر البخار ، والكهرباء ، واللاسلكي ، والطيران . العالم كما تراه الآن يصلح للإنسان كما جُبل الانسان عليه ، فلا تتعب نفسك في اصلاح العمران ، بل اجتهد في اصلاح طبيعة الانسان ان كنت تستطيع ، وإلا فاطلب الخير لنفسك ، من وراء الشر لغيرك ، هذا هو ناموس النسبية العمرانية الأخلاقية . السلام عليك والى الملتقى ان بقي عندك ما يجذبني إليك .

***

وقبل أن تخرج لندا دخلت دورا بنت سلمى فظنتها ملاكي الحارس : كيف ظهرت في هذا العالم الثاني .

استقبلتها لندا استقبال الأفعى لحواء وقالت : أهلاً وسهلاً بالملاك السماوي ، ألعلك رسول خير لهذا المريض المسكين . انه في حاجة الى العطف الى الشفقة ، الى المعونة ، الى المال .

فنظرت فيها نظرة ساذجة وقالت : أشكر لطفك وعطفك ، يا سيدتي . إني لهذا جئت .

فمالت لندا على دورا وهمست في أذنها كلاماً لا أعلم ما هو ، فأجابت دورا بكلام مسموع : كوني مطمئنة لا أدعه يحتاج الى شيء ، ولا لأحدٍ البتة .

ومضت لندا ، وتقدمت دورا ، وأنا أشعر أن لهيباً يندلع من وجهي ، وعلى الرغم من سعيره انحنت قائلة : سلمت يا عزيزي ، فديتك يا روحي .

— من أين جئتِ يا ملاكي الطاهر ؟

— من العالم الجديد ، جئنا لزيارة شرقنا ومشاهدتك .

— لقد حلت البركة ، ولسوف تكون الخاتمة سعيدة لك ، بعد النعيم السماوي .

— لسوف تشفى وتتمتع برهة هنا وفي لبنان ان شاء الله . من هذه المرأة الحنون التي كانت عندك ؟

— هي الأفعى الرقطاء الحنون على حواء ، هي الحية الخبيثة العطوف على زوجة آدم ، هي الثعلبة الروّاغة الشفوق على آدم ، هي الصل اللداغ الرؤوف الذي يتسلل بين نسل آدم ، هي ذئب المال المفترس ، هي ضبع الفلوس الساطي على فراخ الثروات ، هي كل أذى ، هي الشيطان الرجيم . ما ذا همست في أذنك هذه اللعينة ؟

فضحكت دورا وقالت : لا تبالِ بها ولا بما قالت . لقد فهمتُ من وصفك هذا

لها ما هي ، لن يكون لها بعد الآن يدٌ في شؤونك ، غداً تعود لك تجارتك ، طب نفساً وقرَّ عيناً .

— من أي سماء هبطتِ ؟ ومن أي عالم ملائكي قدمتِ يا جنة فؤادي ؟ متى جئتِ ؟

— جئت مع أمي منذ شهر ، وسننتظر الى أن تشفى ، ونمَّ نبرح جميعاً الى لبنان لقضاء الصيف هناك .

— أتعنين يا دورا ، إنك تجددين لي حياةً أخرى ، أراك قد أصبحت عبلة مملوءة البدن ، وازددتِ نضارة وملاحة . فيالغبطة من يستحق عطفك ورضاكِ

— ليس غيرك أحد يستحقهما ان كانا شيئاً ذا قيمة .

— آه لا أراني شيئاً ذا قيمة يا عزيزتي : المال فقدته ، الصحة ساءت ، العقل تضعضع ، حتى السمعة تلوثت . لم يعد في شيءٌ يحبب بي يا دورا ، فعلى مَ تضيعين قيمة شبابك وهناءة مستقبلك في جيفة تتكلم ؟

— صه : لا تقل هذا . ضاع كل شيء ، ولكن الشرف باقٍ الى الأبد ، وسقم الجسد ، ولكن طيبة القلب سليمة . والفكر تزلزل ، ولكن الجوهر حيٌّ خالد . سوف تتعافى وتبني الجسد والعقل والسمعة والمقام ، بناءً أشمخ مما كان . شدَّ حيلك واعتصم بطولك . كيف تشعر الآن ؟ ألست أحسن حالاً .

وجسَّت يدي ونبضي ، فشعرت أن العافية جرت في عروقي ، ودبَّت في بدني ثم قالت : أظن الحمى منخفضة ، والأفضل أن ننقلك الى المستشفى ، سأهتم بالأمر

ودسَّت شيئاً تحت المخدة ومضت على وعد العودة

***

ما ان خرج هذا الملاك الطاهر ، حتى دخلت لندا الشيطان الرجيم ، وقالت مبتسمة بسمة الثعلب : لا ريب أنك أحسن حالاً الآن يا عزيزي ، وقد قاربت الشفاء .

وكالقرد الخاطف دسَّت يدها تحت المخدة واختطفت الفلوس التي وضعتها دورا قبل أن تخرج . وقالت : بكم تفضلت حبيبتك التي كنت تكتم خبرها عني ؟ خمسمائة جنيه فقط ؟ هذا هو ثمنك الذي دفعته عنك ؟ لست أبيعك بأقل من خمسة آلاف . قل لها إنك أغلى من هذا جداً .

وكانت قوتي واهية فلم أستطع أن أقاومها ، فقلت لعنة الله عليكِ من ابليس رجيم . ألا تخافين الله يا شيطانة ، ألا ترهبين نقمة الله القدير يا كافرة ؟

فقهقهت ورفعت يدها بالفلوس التي اختطفتها وقالت : هذا هو الإله الذي أخاف ، هذا هو الإله الذي أعبد ، هذا هو الإله العظيم الذي أحفظه في قدس أقداس خزائني ، هذا هو اللوحان الحجريان اللذان كتب الله فيهما بأصبعه

وصاياه العشر ، ووضعهما موسى في تابوت العهد . الى اللقاء يا عزيزي ، سأعود لكي أقبض بقية ثمنك أيها العزيز الغالي . قل لحبيبتك انها لن تظفر بك بأقل من خمسة آلاف جنيه . لن أدعها تهنأ يوماً بك إلاّ بالخمسة آلاف

فسخطت بها : تبّاً لك يا لعينة ، كيف تطيب نفسك يا خبيثة وأنت وصلصال التراب سيّان . ان هذا المال الذي تنهبينه وتدّخرينه لا يفدي نفسك في الآخرة يا شقية

فقهقهت وقالت : لا زلت جحشاً ساذجاً ، ليتك كلب ذكي ، فلعلك تفهم أن نعيم الحياة إنما هو في هذه الدنيا ، وان للآخرة الموهومة طريقاً غير طريق النعيم الدنيوي يسير فيه القاصدون الى تلك الآخرة . وهو مملوء أشواكاً وعثرات وحشرات ونكبات ، فلك أن تسير فيه حتى متى وصلت الى باب الآخرة ورأيته مقفلاً تعود اليّ فأعطيك مفتاحه . أشتري لك مفتاحه ببضعة فلوس يا غبي .

— ويحك يا تعسة . اذا كنتِ لا تؤمنين بالآخرة ، أفلا تؤمنين بالشيخوخة والهرم والعجز والموت .

— اله المال العظيم يساعدني ويقوّيني حينئذٍ يا جاهل .

— خسئتِ ، اله المال لا يستطيع أن يرد عنك عذاب المرض وملل العجز ، لا يشفيك من الداء العضال والضجر الطويل . حينئذٍ يطلبين الراحة في الموت فلا تجدينها ، يا بهيمة

كل هذا المال يقف فوق رأسك يرثيك لأنك اعتصمت به ، وهو لا حول له ولا طول ، تناديه فيهزأ بك ، تستغيثين به فيسخر من عبادتك له ، ان ربيع سرورك لقصير ، ولكن خريف عذابك طويل

— فقالت ببرود : ان إلـهي الذهبي الحنون ، يحميني من الشيخوخة والهرم ، ويشفيني من المرض ، وينقذني من الألم . ان إلـهي المحبوب ، يجعل أيامي الطويلة كلها ربيع هناءة وسرور .

— والموت يا تعسة ؟ هل نسيت عزرائيل

— لا . لم أنس عزرائيل . ألقمه بعض مالي ، فيعفُ عن روحي . لن أموت .

— والقبر يا مغرورة ؟ ماذا تلقمينه متى أقبل عليك فاغراً فاه ؟

— ألقمه تابوتاً من ذهب ، مرصع بالحجارة الكريمة .

— والدود يا مسكينة ؟ جائع الى لحمك النتن ، ولا يعيش إلاّ فيه .

— أدفعه بالحنوط يا فيلسوف .

— إذن أنتِ وإلـهك من التراب ، والى التراب تعودان . وفي الآخرة متى وقفتِ أمام الديان ماذا تقولين ؟

— الآخرة قبل القبر يا جاهل لا بعده ، الثواب والعقاب قبل الموت يا غبي ، الثواب لي والعقاب لك .

— أتنتظرين ثواباً يا فاجرة . أي مبرة فعلتِ ؟

— لا ريبَ ان ديانيَ مُسعِدٌ لي ثواباً عظيماً يا عزيزي، لأني عبدته عبادة صادقة في قدس أقداس هيكله .

— في أي هيكل عبدته يا شقية :

— في هيكل البنك حيث تكدّس قرابين الأموال . فهو يثيبني النعيم في آخر الحياة ، لأني مجّدتهُ ، وسبحت له وقدّست اسمه .

— تمجدينه بالشهوات الجسدية ، ثم تنتظرين منه نعيماً ؟ لقد غفلت عن نعيم الروح في العالم الثاني .

— تقول الروح ؟ حتماً إنك مغفل ، دع نعيم الروح الخيالية لك ، ودع لي نعيم الشهوات الجسدية . ان الآلهي قد ضمن لي كل مسرّة جسدية حتى الدقيقة الأخيرة من الحياة ، وسينصب لي تمثالاً من ذهب يُكتَب تحتهُ « القديسة لندا »

— عني يا لعينة ، الى هيكل خبثك ودعارتك ، والفظي روحك الى صقر وبئس المقرّ .

***

تركتني الشيطانة ، والحمى تشوبني شيّا ودمائي تغلي وتفور ، ودماغي يتمدد ويتقلص ، ومخيلتي كالسينما تستعرض الصور المعقولة وغير المعقولة ، الى أن ضقت ذرعاً وقلتُ : إلآهي ارحمني ، ربي ارأف بي ، ملاكي الحارس خذ بيدي .

وإذا ملاكي منتصب أمام عيني يقول : لبيك . ماذا تريد ؟

قلت : أود ان أعلم . هل أنا في يقظة الآن أم في منام ؟

قال تكون فيما تشاء . ان شئتها مناماً فأنت في أضغاث أحلام ، أو يقظة فأنت في حقيقة بلا أوهام .

قلت : منذ هنيهة ، كانت عندي زوجتي الخبيثة في حياتي الثانية ، فهل أبقى في حياتي الثانية أو أعود الى الأولى ؟

قال : هذا أمر يخصك وحدك ولك وحدك الخيار فيه .

قلت : ألقت لندا عليّ دروساً زعزعت وجداني ورجّت ضميري ورأيت فيها ان الذين يفعلون حسناً في هذه الدنيا يشقون ، والذين يفعلون شرّاً ينجحون ويهنأون . أليس هذا هو الواقع ؟

— بلى هو الواقع الغالب .

— إذن ما سبب هذا الجزاء المعكوس في هذه الدنيا ، النعيم للاشرار ، والجحيم للأبرار ؟

فقال مقهقهاً : سببه أنتم أيها البشر المتحذلقون . سببه نظامكم الذي جعل المال سيّداً لكم ، واشباعاً لمطامعكم ، لولا هذا المال الذي ألّهتموه وعبدتموه لما كان من لزوم لوصايا الله العشر . هذا المال هو سبب الشرور لأجل الحصول عليه ، وبسببه تكذبون وتسرقون وتقتلون وتزنون وتشهدون زوراً وتنهبون بعضكم بعضاً ، به

تستعجلون الجحيم، فأسرع الجحيم اليكم على الأرض. انبذوا المال وعيشوا بالعمل فتنتفي الجرائم، وينقرض الشقاء، وتعم السعادة.

قلت: إذا كنت لا أستطيع أن أقلب هذا النظام، فلماذا لا أحذو حذو الأشرار، لكي أتمتع كما يتمتعون؟

قال: تعني أنك تريد أن تعيش فوق الشريعة والقانون، وغيرك يعيش تحت سلطتهما لكي تستغل لنفسك احترام غيرك للحق. تريد أن تطلق العنان لسنة تنازع البقاء.

قلت: لا بأس في ذلك إذا كنت أفوز باللذة.

قال: إذا كنت ضعيفاً تجاه قوي، فبمن تلوذ وبمن تحتمي والى من تلتجيء لكي تدرأ شره عنك؟ لا ملاذ لك الا القانون، ومنفذ القانون. فلا غنى عنهما لردع القوي عن الضعيف

قلت: وإذا كان منفذ القانون نفسه هضاماً للحقوق، فماذا يفعل القانون وهو بلا حول ولا طول؟

قال: تبقى المسؤولية على عاتقك لأنه نقض عنه الاخلاق.

قلت: إذا كانت الأخلاق تسبب لي شقاء فلماذا اعتصم بها؟ لماذا لا أنهب مع الناهبين، واغتصب مع المغتصبين، وأظلم مع الظالمين؟ إن بعض الناس استطاعوا أن يبتزوا أموال آخرين. فهم يتمتعون بمال السحت ويتنعمون بمال الحرام، ولا يستطيع القانون أن يردعهم ولا منفذ القانون ان يعاقبهم، مع أنهم أضعف بدناً، أو أصغر عقلاً من الذين ابتزوا أموالهم، بل هم أشر قلباً، وأوسع حيلة. وزوجتي كانت منهم، وخير قدوة لهم.

قال: إن العالم الذي لا احترام فيه للقوانين آئل الى الفوضى والدمار. فأنت حر أن تعيش تحت جناح النظام والقانون، أو في عالم الفوضى، أو أن تنتحر حين تخرج من تحت سلطة القانون، ولا تجد حامياً آخر لك.

***

ثم تلاشى ملاكي في عالم الغيب، وتلاشى معه وجداني، فلم أعد أعي لا الحياة الأولى ولا الثانية.

الفصل السابع عشر

أيقظة أم منام ؟

الانسان بلا وجدان جسم يتحرك ، لاعقل ولا روح . الدودة أنبه منه ، الدودة تعرف طريقها وتقصد الى طعامها وتتحايد مهالكها . أما الجسم المتحرك بلا عقل فلا يأمن الوقوع في التهلكة .

لا أدري كم يوم مرّ عليّ وأنا أغبى من دودة . أدري أني تنبهت إذ الممرضة تخزني بابرة آلمتني قليلاً . نظرت فيها فأنعشتني ابتسامتها . وقلت : أفي يقظة أنا أم في حلم ؟

فقالت : وي . وي . أعدت الى حديث اليقظة والحلم ؟

قلت : أجل اني في شك من وجودي الآن . أصاح أنا إذ أراكِ فتاة لطيفة حنوناً ، أم أنت خيال في مخيلتي حتى إذا صحوت لا أعود أراكِ

فقهقهت وقالت : أنا كما ترى . لقد هبطت حمّاك وشفيت من سرسامك ، وصحوت من هذيانك ، وقلت هذرمتك فاطمئن .

— ترى في أي الحياتين أنا الآن ، الأولى ؟ أم الثانية ؟

قالت : هل عدت تخرّف وتهرف . حاذر فقد سمعت أمس همساً بأنهم سينقلونك الى مستشفى الأمراض العقلية إذا بقيت تهذي وتخلط في الكلام . أنت الآن تدخل في دور النقاهة . فاربأ بنفسك .

وخرجت مقفلة الباب فقلت : رحماك ربي . عطفك ملاكي .

***

وما أن تفوهت حتى انتصب أمامي ملاكي ، فاذا هو الآن مهوب الروعة ، جليل السحنة . وقال هل اروعيت ؟

قلت : اكتنفتني الحيرة يا سيدي ، إني في بلبال دائم ، لم يبق لي مطمع في هذه الحياة المرّة .

— تعني الحياة الثانية التي طلبتها ، أم الأولى التي مقتها .

— كل منهما أمرّ من الأخرى . أود أن أخلص من تداولهما اياي .

— هل صحّ عزمك على الرحيل الى الأبدية ؟

— أظن هناك حياة هادئة . أليس كذلك ؟

— تتوقف على يقينك وهدوء نفسك . لا أضمن لك شيئاً هناك .

— هل يوجد مصير آخر غير تلك الأبدية

— لا يمكنني أن أفيدك شيئاً بهذا الصدد ،

ليس في طوق عقلك أن يفهم شيئاً مما هو وراء هذا العالم قبل أن تخرج منه ، متى خرجت من هنا تعلم ما هناك .

— إذن ما وراء هذا العالم مجهول ، أفلا يجزع الانسان من المضي الى المجهول ؟

— إذن ، تخاف أن ترحل من هذا العالم الوقتي الى العالم الأبدي .

— إذا كنت قد مللت هذا العالم الزمني الذي له نهاية ، أفلا أجزع من العالم الأبدي الذي لا نهاية له ؟ لله ما أرهب الأبد الممل . ألا يمكن أن نعلم : ماذا بعد الأبد ؟

— ليس للأبد بعد .

— أحقيق أن في الأبد نعيماً .

— خذ نعيمك معك من هنا إذا شئت

— إذن كان لي نعيم هنا فلأبقَ هنا إذن .

— هنا نعيمك ينقضي ، وهنالك لا يزول إن استطعت أن تصحبه معك .

— في الأمر شك إذن ؟

— نعم الأمر أمرك .

— أظنه خير لي أن أبقى هنا أتمتع بنعيمي لأني أخاف من رهبة العالم المجهول ، ولا أضمن أني آخذ معي نعيماً من هنا الى هنالك .

— منذ هنيهة كنت تقول : انك تود ان تتخلص من الحياة هنا ، فاذا بك تعدل عن التخلص منها .

— النفس عزيزة يا سيدي . الحياة محبوبة يا مولاي .

— منذ هنيهة كنت تقول انها مرّة ، فهل عدت تستلذها ؟

— أؤمل أن أجد حلاوة فيما بقي منها

— حسن اذاً تعتمد على الأمل .

— آ . ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

— وإذن تكتفي بلذة الأمل الى أن ينقضي العمر .

— ويلاه ! ألا يمكن تحقيق أمل قبل انقضاء العمر ؟

— هذا يتوقف عليك . فقد نلت من الحياة عمرين واختبارين . فاذا لم تستفد منهما في تحقيق آمالك ، فاخفاقك يكون ذنبين تعاقب عليهما عقابين .

— أحقٌ هذا ؟

— وهبك نجحت وهنّئت أحقٌ ان تكافأ بثوابين ؟ لقد عشت حياتين ، ولكل حياة ثوابها وعقابها .

— إني قانع بحياة واحدة ، فأيهما تمنحني لتتمّة العمر ؟

— أنت تختار لا أنا ، ولك ان تتقلب بين الحياتين كما تشاء .

— لا . لا . رحماك . ان هذا التقلب أقضّ مضجعي .

— عجباً : من يحصل على هذا الخيار غيرك — ان يعيش الانسان حياتين يتنقل بينهما بمطلق حريته ؟

— حياتين ؟ الواحدة حقيقية والأخرى وهمية ، وأنا مضعضع العقل بينهما .

— أنت طلبت حياةً أخرى فأعطيت

— يستحيل أن تكون احداهما إلاّ وهماً أو حلماً . وقد أصبحت لا أدري أيتهما الحقيقية ، وأيتهما الوهمية . فكفى ضعضعة للعقل بينهما يا سيدي الملاك ، أرجو ان ترشدني الى الحقيقية منهما .

— الحياة التي تستطيبها هي الحقيقية .

— ويلاه ! لا أزال ضائعاً ، ربك اهدني

— أعطيت عقلاً كاملاً . فاهتدِ . لقد انتهت مهمتي ، اني مودعك الى الأبد .

وتلاشى من أمام عيني فيما أنا استغيث به

***

يقول الكاتب : وقد عدته غير مرّة في مستشفى الأمراض العقلية ، وكان كل مرة يسألني أفي حلم أنا الآن ، أم في يقظة؟

فأوعزت الى الطبيب أن يبذل جهده الفني في اقناعه بأنه في يقظة ، لكي يزول سبب وجوده في المستشفى

وعلى الرغم من خروجه من المستشفى سليماً معافىً ، وفي أحسن حال ، ما زال كلما رآني يسألني : « أحقيقة » اني في يقظة أم في حلم؟

للمؤلف

مؤلفات علمية

هندسة الكون حسب ناموس النسبية Relativity
فلسفة التفاحة ، أو جاذبية نيوتن
Newton's Gravitation
عالم الذرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy
فلسفة الوجود Ontology
علم أدب النفس Ethics
علم الاجتماع (جزآن) Sosciology

مؤلفات اجتماعية واجتماعية

الاشتراكية
الحب والزواج
ذكراً وأنثى خلقهم
مناهج الحياة
شعوب أوربا (مترجمة)
تاريخ أساس الشرائع الانكليزية (مترجمة)

روايات الاتحاد العربي

فرعونة العرب عند الترك
جمعية اخوان العهد
وداعاً أيها الشرق

روايات مختلفة

المقدس (ممتازة)
ثورة في جهنم
حواء الجديدة (طبعة ثالثة)
آدم الجديد
الصديق المجهول
الحقيبة الزرقاء
عين بعين
اسرار مصر
العالم الجديد
نبية لبنان
حركات السيدات في الانتخابات، أو اي هو اتي
ثورة عواطف
من عرابي الى زغلول
فاتنة الامبراطور
زغلولات مصر
أين الكنز يا شرلوك هولمز (مترجمة)
الامبراطورة ثيودورة (نشرت في هلال يناير سنة ١٩٤٤)
دولة سيدات في مملكة نساء
ليت الشباب يعود

روايات نشرت في اللطائف المصورة

المنطاد المختفي
زغلول مصر
زغاليل مصر
فتاة آل عثمان
تحت راية مصطفى كمال
فتاة الاناضول وانهزام اليونانيين

روايات مترجمة نشرت في مسامرات الشعب

حب في ثورة (الاصل لديماس)
عقد الملكة (جزآن) »
الزهرة الحمراء (الاصل للبارونة اورزي)
الحرب الجوية
المقرب (بتصرف)
زوجة بالاسم

كتب للمؤلف معدة للطبع

الديمقراطية — مسيرها ومصيرها	خالد بن الوليد : تمثيلية أو رواية
اسحق نيوتن	الحب الذهبي: « «
العزلة في رأس الجبل	الكنز القيصري أو دوقة في مصر : رواية
(مناقشات أخلاقية)	سر الكنز : رواية

من مؤلفات المؤلف للبيع

في ادارة المقتطف

ص

٤٠ هندسة الكون على سنة النسبية

٢٠ عالم الذرة — الطاقة الذرية

١٢ فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن

٢٠ ليت الشباب يعود (أروع رواية)

٢٥ فلسفة الوجود

٣٠ دولة سيدات في مملكة نساء

DATE DUE

الحداد ،نقولا
ليت الشباب يعود: ذاتيتان فى شخص و
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037760

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

General Library

892.78
Ha2818lA
c.1